السلطان محمد الفاتح

فاتح القسطنطينية

الدكتور محمد مصطفى صفوت

أستاذ من جامعة ليفربول
ودكتور من جامعة لندن
والأستاذ المساعد للتاريخ الحديث
بجامعة فاروق الأول

١٩٤٨

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

السلطان محمد الفاتح

فاتح القسطنطينية

الدكتور محمد مصطفى صفوت

أستاذ من جامعة ليفربول

ودكتور من جامعة لندن

والأستاذ المساعد للتاريخ الحديث

بجامعة فاروق الأول

١٩٤٨

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

السلطان محمد الثانى الفاتح

من أكبر الشخصيات التى تركت أثرا باقيا فى حياة العالم لا تزال تلمسه إلى الوقت الحاضر شخصية السلطان محمد الثانى . وهذه الشخصية عظيمة لأنها حولت مجرى التاريخ الاسلامى والعالمى .

وإذا ذكر أعلام الإسلام فى السياسة والحرب فمحمد الثانى العثمانى بلا ريب فى مقدمتهم ومن أعاظمهم فهو الذى بنى ملكا للأتراك ثابت الأركان وهو الذى ثبت قدم الاسلام فى أوربا بالقضاء على العقبات التى تقف فى طريقه . لقد وضع السلطان محمد الفاتح نهاية للدولة التى وقفت فى سبيل الاسلام فى أقوى أيام جبروته وعظمته ، ومنعته من أن يسيطر سيطرة تامة على الشرق الأدنى ، وعاقت تقدمه وانتشاره فى شرقى أوربا وإذا كانت قبائل الفرنجة من الجرمان قد صدت أمام غارات المسلمين فى غربى أوربا ، فلقد وقفت الدولة الرومانية الشرقية أو البيزنطية أمام قوات الاسلام مدة تنيف على قرن سبعة . قابلت هذه الدولة نهايتها أمام قوات السلطان محمد الثانى حين استولى على عاصمتها وأعظم مدنها بل وأعظم مدن العالم المسيحى فى شرق أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى

ويعد عصر محمد الثانى من أقوى عصور الأتراك العثمانيين ، ففيه تركزت النظم العثمانية وثبتت دعائمها ، وفيه بدأ تقنين القوانين الذى

سيبلغ شاوه فى عهد السلطان سليمان القانونى . كان عهد محمد الفاتح عهد فتح وحرب وتنظيم كما كان عهد أدب وفن وثقافة وعلم ، فالسلطان الفاتح كان مجيدا لعدة لغات غير لغته التركية مجيدا لقول الشعر مغرما بالموسيقى ، ونبغ فى عهده فى الأدب عدد لا يستهان به ، فلقد كان يقول الشعر عدد من كبار رجال دولته كما نبغ فى العلوم الشرعية واللغوية عدد كبير من العلماء الأماثل

ولقد حاول المؤلف فى هذه الكتاب أن يصف حياة هذه الشخصية العظيمة وأن يلم إلمامه موجزة بالعصر وحوادثه .

ويقدر الكتاب كل التقدير فضل أستاذه المؤرخ الكبير حضرة صاحب العزة محمد شفيق غربال بك ، فهو الذى وضع أساس هذه الدراسات فى الجامعة ، وهو مدين بالشكر الجم للمساعدة الحقيقية القيمة التى تفضل بتقديمها الأستاذ ابراهيم صبرى مدرس اللغة التركية بجامعة فاروق الأول ، فلقد زود الكاتب بكثير من المعلومات الطيبة وترجم له النصوص التركية الشعرية والنثرية . ولا ينسى الكاتب كرم الأستاذ صاحب الفضيلة الشيخ ابراهيم حلمى القادرى بالأسكندرية لتفضله وضع مخطوطاته القيمة ومراجعه الثمينة فى التاريخ العثمانى تحت تصرفه كما يشكر زميليه الأستاذين عبد المحسن الحسينى وجمال الدين الشيال للمساعدة التى تفضلا بتقديمها له

الاسكندرية فى سنة ١٩٤٨

مقدمة

تضعضعت قوى الإسلام فى الشرقين الأدنى والأوسط منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وأصبح الخليفة العباسى فى بغداد ، سليل المنصور وهرون الرشيد لا حول له ولا طول ، وتفككت الدولة الإسلامية وانحلت أمورها وتوالت عليها الكوارث من كل جانب .

ولكن بقى اسم العباسيين فى بغداد رمزاً لمجد قديم وعز لا يبارى وملك وارف الظلال إلى أن زال ذلك الرمز وامحى ذلك العز نهائياً من على ضفاف دجلة والفرات حين قدم التتار إلى بغداد مدمرين مخربين ، وجعلوا من دار السلام ومدينة المنصور وحاضرة العباسيين خراباً بلقعاً فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

زالت أعظم دولة إسلامية تنتسب إلى أصل عربى صميم ، ودكت معالم حضارة ازدهرت فأفادت العالم أجمع ، وضاع مجد لم تعرف له العراق مثيلا إلا فى عهد الأكاسرة الساسانيين .

* * *

وفى الوقت الذى كانت فيه قوى الإسلام تنحل من الناحيتين السياسية والحربية وتوشك على الانهيار فى الشرقين الأدنى والأوسط

كانت قوى الإسلام فى الغرب فى الأندلس تتلاشى رويداً رويداً أمام قوات المسيحية ، فكان الإسلام ، وكانت دار الإسلام مهددين بخطرين عظيمين لا يبقيان من ناحيتين شرقية وغربية ، من ناحية التتار ومن ناحية المسيحية ، ولو اتفق الاثنان ووحدا قواتهما لقضى على الإسلام .

ولكن لحسن حظ الإسلام والعالم أن خصميه العتيدين فى ذلك الوقت لم يتفقا ، وإن كانا قد حاولا الاتفاق ، ولم يحظ واحد منهما بنجاح حقيقى دائم ، وإن كان قد ظهر للبشر جميعاً فى حين من الدهر أن قوة الإسلام ووحدته الدينية ستصبحان كأمس الدابر ، لا سيما وأنه فى ذلك الوقت الذى تحقق فيه العالم من ضعف الإسلام ، هاجمت أوربا ديار الإسلام بقوتها وزهرة شبانها وأقوى محاربيها ونوابغ فرسانها وكبار صليبييها .

* * *

كاد الإسلام يسقط أمام هذه القوات الثلاث التى هددته من كل جانب ، ولكن ظهرت فى الإسلام قوات فتية ذات حيوية فائقة ستنقذه ، وتشيد مجده من جديد وترفع ذكره . هذه القوات الجديدة هى قوات الأتراك السلاجقة وقوة مصر الإسلامية الأيوبية والمملوكية ، وقوة المغرب الأقصى .

وكانت أقوى هذه القوات جميعاً وأبقاها قوة الأتراك .

لقد أجلت قوة المغرب الأقصى زوال الإسلام من الأندلس (أسبانيا) مدة من الزمن ، وأنقذت قوة الأتراك وقوة مصر الإسلام من الصليبيين ومن التتار ، وإلى هاتين القوتين يرجع الفضل فى إحياء الإسلام .

وقضت قوة الأتراك العثمانيين على آخر دولة مسيحية فى الشرق الأدنى ، وهى قوة الدولة البيزنطية على يد السلطان محمد الثانى باستيلائه على مدينة القسطنطينية ، ولئن كان الإسلام قد خسر عاصمة عظيمة بسقوط بغداد على يد التتار ، فلقد أقام السلطان محمد الفاتح عاصمة جديدة للاسلام فى أعظم مدن المسيحية

* * *

جدد الأتراك قوى الإسلام وأكسبوها حيوية جديدة من حدود الصين ووسط الهند إلى الشواطىء الشرقية للبحر الأبيض المتوسط وبحر الأرخبيل ، لقد استطاع الأتراك فتح آسيا الصغرى لسلطان الإسلام السياسى والدينى ، وإن هجراتهم التى لم تكن تنقطع لمدة أربعة قرون من أواسط آسيا إلى غربيها هى التى صبغت هذه الأجزاء صبغة تركية وأكسبت الإسلام عناصر قوية نشيطة .

عرفت آسيا الصغرى غزوات للعرب وفتوحات من عهد الخلفاء الراشدين إلى قرب أواخر العصر العباسى ، هذه الغزوات ما كانت تفتر وكانت تتجدد كل عام تقريباً فى كثير من الظروف . ولكن هذه الفتوحات كانت أشبه بمد وجزر من ناحية العرب ومن ناحية البيزنطيين ، فطوراً يتوغل العرب فى آسيا الصغرى ، وطوراً يرتدون إلى حدود الجزيرة والعراق .

ولكن الأتراك السلاجقة وحدهم هم الذين استطاعوا تثبيت قدم الإسلام فى آسيا الصغرى بعد أن ضربوا البيزنطيين ضربة حاسمة فى موقعة منذكرت فى القرن الحادى عشر الميلادى .

ومن ذلك الوقت بدأ الإسلام يتغلغل حقيقة فى آسيا الصغرى على يد هؤلاء الأتراك السلاجقة ومن تبعهم من القبائل التركية ، ولم تستطع كرات البيزنطيين المتكررة ولا هجمات الصليبيين العنيفة أن تزحزح الإسلام من قواعده فى آسيا الصغرى بصفة دائمة ، بل بالعكس انتشر الإسلام ، ودخل عدد كبير من السكان فى الدين الجديد أفواجاً ، بحيث لم يأت القرن الثالث عشر إلا وقد عم الإسلام وأصبح القوة المتفوقة فى آسيا الصغرى ، وعبر التجار والجنود المرتزقة من الأتراك إلى أوربا ، وإلى القسطنطينية ذاتها حيث شاهدوا أعظم

مدينة على سواحل البحر الأبيض ، وأجمل مدينة اختطتها يد الإنسان تشرف على قارتين وبحرين ، وبهرهم غناها وفخامتها وموقعها الممتاز ، وودوا لو أصبحت المدينة الخالدة على ضفة البوسفور معقلا من معاقل الإسلام ، عاصمة لملكه وملاذاً لأهله .

* * *

ولكن السلجوقيين ما كانوا مستطيعين القيام بمثل هذه المهمة ، وهى أعظم مهمة يستطيع الفاتحون بعد سقوط بغداد القيام بها فالاستيلاء عليها معناه أكبر انتصار تستطيعه دولة ، وسقوطها معناه القضاء على أمة وتحويل مجرى التاريخ العالمى وإحداث انقلاب بعيد الأثر فى الحضارة .

وهم لا يستطيعون القيام بمهمة عجز العرب عنها فى أقوى عهودهم وأعز أوقاتهم ، وإن كانت قد أتيحت للسلجوقيين فرصة لم تتح للعرب من قبل ، فالسلجوقيون كانوا مالكين لآسيا الصغرى مقيمين فيها قريبين من القسطنطينية ، ولكن قربهم لم يفدهم شيئاً ، فانقسام دولتهم وتفرق كلمتهم وعدم توحيد جهودهم أضعف من نفوذهم وجعل من بينهم فى آخر الأمر دويلات وشيعاً وأحزاباً حلفاء للبيزنطيين أنفسهم تعمل فى كثير من الأحيان على منافسة زميلاتها ، بل والقضاء عليها .

ولكنه بالرغم من ذلك عاش الفرع السلجوقى الذى حكم آسيا الصغرى مدة ثلاثة قرون ، استطاع فيها بشجاعته ومهارته السياسية الاستفادة من المنافسة التى قامت بشكل حاد بين البيزنطيين والصليبيين . لقد هزم الأتراك السلاجقة البيزنطيين والصليبيين مراراً ، وأقاموا فى آسيا الصغرى إلى أن هبطتها قبيلة تركية فارة أمام قوات التتار . كانت هذه القبيلة فئة قليلة تفرعت منها فى فترة قصيرة من الزمن الدولة العثمانية .

ومبدأ ظهور الأتراك العثمانيين محوط بالخرافة وتتجمع حوله الأساطير و يظهر فيه الغموض حتى كأنما هبطوا من السماء أو انبثقت عنهم الأرض أو هوت بهم الريح من مكان سحيق .

* * *

لقد نشأ السلطان محمد الثانى الفاتح فى دولة نهضت بسرعة ، دولة قامت على أشلاء الدولة السلجوقية ، وتفوقت لاختلاف الأمارات السلجوقية وتنازعها فيما بينها ، دولة ساعدها موقعها الجغرافى وقربها من الحدود البيزنطية على القيام بالحرب المقدسة ، فهوى إليها الأتراك من كل جانب ، قامت الدولة فى عهد عثمان وجعل الإسلام من أهلها ومن بقية الترك أمة موحدة ، بل إن الإسلام هو الذى جعل من الترك

والأغريق والمجريين والبلغار والألبانيين والصقالبة أمة واحدة ، وجعل من كل هذه العناصر المختلفة قوة أصبح اسم آل عثمان لها رمزاً وعقيدة .

أنشأ عثمان الشعب العثمانى ، وجعل أرخان من ذلك الشعب دولة تقوم على أسس إدارية وحربية وطيدة الأركان ، وانتقل الجيش العثمانى من نظام قبلى إلى نظام حربى ممتاز ، والفضل فى ذلك يرجع إلى أرخان وأخيه ووزيره علاء الدين ، وفى عهد أرخان وضع العثمانيون أقدامهم فى أوربا ، وثبتوا مراكزهم فيها حين افتتحوا أدرنة فأصبحت عاصمتهم إلى أن تم لهم الاستيلاء على القسطنطينية .

ولقد قام الأتراك العثمانيون بالفتح فى آسيا الصغرى والبلقان معاً ، وكما أصبحوا أكبر قوة فى آسيا الصغرى ، صاروا أعظم دولة فى البلقان بعد أن تمكن السلطان مراد الأول من كسر قوة الصرب والبلغار فى موقعتى ماريتزا وقوصوه فى أواخر القرن الرابع عشر ، فوقع البلقان تحت أقدام العثمانيين ، ولم تعد توجد فيه غير عناصر منحلة ، هذا فى الوقت الذى كانت تزداد فيه قوة الأتراك باستمرار الهجرة التركية من آسيا تدفعها حركات المغول . وبينما كانت الحالة مضطربة فى دول البلقان المسيحية كانت توجد بين الأتراك روابط متينة : دين واحد ، ونظام واحد ، وغاية واحدة .

ولربما استطاع السلطان بايزيد الأول القضاء على الامبراطورية لو امتاز بالتبصر وحسن السياسة ولو لم يواته سوء الحظ بغزو التتار ، فلقد لقب بالصاعقه يلدرم ، لقد قضى بايزيد على بلغاريا نهائياً وفتح بلدانها الواحد بعد الآخر ، كما تمكن من القضاء على قوة الصرب و إخضاع أجزاء من ألبانيا . ثم أعطى أوربا درساً قاسياً إذا أرادت تحدى قوة العثمانيين ، فلقد قضى على قوة التحالف الأوربى الصليبى فى موقعة نيكوبوليس فى أواخر القرن الرابع عشر

وربما كان بايزيد مستطيعاً فتح المدينة الخالدة لولا تردده وضعف أسطوله وعدم استكمال استعدادته ومجىء خطر التتار الداهم . لقد أرسل تيمور رسالته الشهيرة إلى بايزيد وهو يحاصر القسطنطينية الأمر الذى دعاه إلى رفع الحصار عنها ، وانهزم العثمانيون أمام التتار فى موقعة أنقرة لتفريط بايزيد وسوء سياسته ، واستقلت بعض الأمارات التركية مثل قرمان وأيدين وكرميان ، و بدأت الدولة البيزنطية تنهض من محنتها .

ولكن حسن الحظ وأتى العثمانيين ، فلقد مل تيمورلنك الفتوح فى آسيا الصغرى ، ورجع إلى سمرقند ، وفكر فى فتح الصين ومات ، ولم يأسف عليه الإسلام ، ولحسن حظ العثمانيين أيضاً بالرغم من الحرب الأهلية التى قامت بين أبناء بايزيد استطاع أحدهم أخيراً وهو السلطان

محمد الأول أن يوحد قوى العثمانيين ، وأن يتبع سياسة السلام لتثبيت دعائم الدولة من جديد . ومن حسن حظ العثمانيين أن زاد عدد الأتراك الهاربين أمام جحافل المغول فامتلأت بهم آسيا الصغرى وأملاك الدولة العثمانية فى أوربا ، وانضم إليهم عدد كبير من أبناء المسيحيين البلقانيين ، فازدادت قوة الدولة من الناحية الحربية بهذه العناصر الجديدة .

وفى عهد السلطان مراد الثانى وهو أب الفاتح سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى والبلقان ، وانتصروا على البنادقة ، واكتسحوا شبه جزيرة اليونان ، وهزموا المجريين والألبانيين ، وأصبح للعثمانيين التفوق فى البلقان ، وذهب نهائياً الخطر الأوربى بعد موقعتى ورنه وقوصوه فأصبح الأتراك فى مأمن من ناحية الدانوب ، وألزم الامبراطور البيزنطى بدفع الجزية . ولم يبق من ممتلكات الدولة البيزنطية إلا القسطنطينية وضواحيها . فكان الاستيلاء على هذه المدينة مهمة أعظم سلاطين هذه الدولة ، وهو السلطان محمد الثانى الذى سيلقب بالفاتح لفتحه هذه المدينة ، وبالقانونى لتنظيمه القوانين العثمانية

شخصية الفاتح

محمد الثانى من أقوى الشخصيات الممتازة التى تولت السلطنة العثمانية وأعظم معاصريه على وجه الإطلاق ومن أكبر شخصيات العالم.

تولى الإشراف على أمور الدولة العثمانية وهو أعز ما يكون نضارة فى الشباب وقوة فى الجسم ، تولى الملك وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ولد فى ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هجرية ، ٢٠ إبريل سنة ١٤٢٩ ميلادية ، ولا ريب أن هذه سن مبكرة لمن يتولى مهام الحكم الجسيمة لدولة عظيمة ناشئة كالدولة العثمانية . ولكن والده السلطان مراد الثانى كان قد اهتم بتربيته اهتماماً خاصاً ، وأحسن اختيار من يقوم على تعليمه وتدريبه .

لقد تدرب محمد على أمور الملك عملياً قبل وفاة والده ، فلقد تولى أمور السلطنة فعلا مرتين حينما آثر السلطان مراد الثانى اعتزال الملك والانصراف إلى حياة الراحة والاخلاد إلى السكينة . عرف محمد كيف يتحمل المسئولية فى حياة أبيه ، وعرف كيف يواجه مشاكل الدولة والحكومة ، وخبر الرجال وكشف مواطن الضعف فى نفسه وعمل على معالجتها ، ودرس نظم الدولة الداخلية وقدر مهمتها الخارجية ومشاكلها

الدولية . ومما يروى أثناء توليه السلطنة فى حياة أبيه أنه باشر أعمال الملك بنشاط وحماس ، ولم يلتفت إلى آراء ذوى الخبرة ممن حوله من وزراء أبيه مما اضطرهم إلى شكواه إلى والده فلقد بعث خليل باشا الصدر الأعظم إلى مراد بخطاب يقول فيه : « إن هذا السلطان لازال صغيراً فى السن وليس لديه اضطلاع بأمور الملك ، وليست له التجربة الكافية وخاصة فى الأمور الحربية ، ومما يزيد الحالة سوءاً أنه لا يستمع لغير نفسه ويرفض تقبل النصائح التى تسدى له بدرجة أنك إذا لم ترجع إلى العرش سيصبح شعبنا فى خطر عظيم » .

كان هذا درساً للسلطان الصغير لم ينسه طول حياته ، فلقد عرف كيف يستمع لنصيحة والده ، ويقدر من حوله وكيف يدرس الأمور بنفسه ، وكيف يحسن سياستها ، وينحنى أمام العاصفة إلى أن تنتهى ، عرف محمد كيف يضبط نفسه ، وكيف يدرس خدامه وجنوده ، ولا سيما الانكشاريه فخبر اقتدارهم على الخير والشر ، فاهتم بمسائل النظام أعظم اهتمام .

وجد محمد الثانى أباً له من أعظم سلاطين آل عثمان ، وكانت أمه مسيحية كما تقص رواية حياته ، فامتزجت فيه أحسن صفات الشرق والغرب فى ذلك الوقت ، وإذا كان للوراثة والبيئة أثرهم فى حياة

الإنسان وصفاته وأخلاقه ، فلقد ورث عن أبيه الجلد والشجاعة وشدة المراس والصبر على المكاره وعدم اليأس ، كما أخذ عنه المعرفة بأمور الحرب والإتقان فى وضع الخطط الحربية وحصار المدن وقيادة العمليات الحربية .

كان السلطان محمد الثانى قمحى اللون متوسط الطول متين العضلات كبير الثقة بنفسه ذا بصر ثاقب وذكاء حاد ومقدرة على تحمل المشاق ، يحسن ركوب الخيل واستعمال السلاح . كان محباً للتفوق ميالا للسيطرة طموحاً سريعاً فى فهم المواقف ، يحسن معالجة الأمور ، كبير اليقظة ، يحيط بتفاصيل الأشياء ويدرك بسرعة أهم مواضعها .

علمه أبوه فأحسن تعليمه فنشأ ذلك الرجل مثقفاً ثقافة حقيقية كأحسن ما تكون ثقافة إنسانية شرقية فى عصره ، فلقد كان ملماً بجملة لغات أجنبية ، فكان يحسن إلى جانب لغته الأصلية التركية العربية والفارسية والأغريقية ويفهم الإيطالية ، وكان بجانب إلمامه بهذه اللغات واسع الاطلاع فى آدابها يتذوق الجميل منها .

نشأ مهتما بدراسة التاريخ مغرماً بقراءة سير العظماء والأبطال ، فقرأ بإمعان حياة القياصرة أوغسطس وقسطنطين الأكبر وتيودوسيوس الأكبر ، وأعجب بشخصية الاسكندر الأكبر المقدونى أيما إعجاب ،

فلقد لمح فيها صورة من نفسه ، رأى فيها قوة النفس وصحة العزم وسرعة التنفيذ بعد إحكام الخطة وعدم التردد . كان ذهنه كذهن الاسكندر من قبله مملوءاً بالمشاريع مكتظاً بالخطط ، وكان عقله خزانة لأسراره فهو يحتفظ بها ، يكتمها ولا يعلن بها إلى أحد إلا فى الوقت المناسب حينما يقدم على تنفيذها .

كان محمد الثانى يحب الفنون لا سيما الموسيقى والرسم ويتذوق الأدب ويحفظ الشعر الجميل ويقوله ، ويهتم بدراسة الفلك ، وكان يحسن استغلال دراساته فى تقويم نفسه و إصلاح عقله والتأثير على المحيطين به .

ولكن حياته كانت حب الحرب فاضطلع بفنونها أيما اضطلاع ، وما كان يعلم بأى اختراع حربى إلا ويكون السباق إلى معرفته واستكماله والاستفادة منه ، ومن ذلك اهتمامه الكبير بالمدفعية و بالبحرية .

كانت حياته بسيطة لا تعدو القراءة والتدرب على الحرب ثم الصيد ، كان عدواً للترف منصرفاً عن حياة إرضاء الشهوات ، كانت عاداته غير معقدة ، ومائدته بسيطة ، ولم يكن له ندماء ولا محظيات بالمعنى الذى يفهمه سلاطين ذلك العصر الماضى وملوكه ، فعاش وحيداً بعيداً عن الاختلاط المبتذل فى جو كله هدوء ، كله ثقافة وعلم ، أو جو صاخب هو جو الهيجاء والنزال والنضال والحرب .

عاش محمد الثانى فى جو ساد العالم فيه خشونة وقسوة ، فى وقت كله حماس دينى وتعصب فى آسيا وأوربا ، فلقد دام النضال بين المسيحية والإسلام مدة طويلة زادت فيها الأحقاد وهبطت إلى أعماق النفوس فغذت روح البغض وحب التشفى والانتقام . ولذا ظهر فى بعض تصرفات السلطان الفاتح بعض الشدة والعنف ، وإن كان ذلك بخلاف والده الذى كان دائماً رقيق الجانب مشهوراً بالعطف والرحمة وحب العفو . وربما لم تكن هذه الشدة وذلك العنف فى طبيعة السلطان محمد الثانى ، فهو رجل قد سمت نفسيته وانصقل ذوقه واتسع أفقه ، ولكن العصر كما قلنا كان عصراً قاسياً وغير رحيم .

فإذا كان قد ظهر أثناء فتوحات هذا السلطان بعض العنف ، فربما كان وليد ذلك العصر الذى تحمس فيه المسلمون للجهاد والتوسع والفتح ، وتحمس فيه المسيحيون لدينهم وناضلوا نضال المستميت للدفاع عن حرياتهم ، واشتد ذلك الصراع والنضال بين الفريقين إلى درجة تلاشى معها العطف والعفو بين الفريقين .

حبا الله ذلك السلطان المواهب الممتازة والمقدرات العظيمة ، فهو سياسى بعيد النظر يحسن انتهاز الفرص ، وكرجل من رجال الحرب هو من الطراز الأول لا يدانيه أحد فى عصره .

كان السلطان محمد الثانى يهتم اهتماماً خاصاً باختيار من يعاونونه فى الإدارة والحكم ، وهو لا ينظر فى ذلك إلى الهوى الشخصى وإنما ينظر إلى المصلحة قبل كل شىء ، وكان يرى بنفسه أن أوامره تنفذ بكل دقة .

ولم يكن ممتازاً فى الناحيتين الثقافية والعسكرية فحسب ، فكانت كفايته الادارية والقانونية عظيمة ، فلقد أنشأ دولة عظيمة ، وبنى ملكاً كبيراً ، وقضى على دولة كانت فى يوم من الأيام لا تقهر ، فلا بد إذن من وضع تنظيم جديد وإصدار قوانين جديدة تتناسب ودولته الجديدة ، فمحمد الثانى هو الذى وطد دعائم الملك العثمانى فى داخل إمبراطوريته الكبيرة ، فاكتسب للعثمانيين النصر الخارجى وقنّن لهم القوانين ، وعمل على استقرار الحالة الداخلية .

لقد أدعى مؤرخو عصر الفاتح من الأجانب أنه لم يكن كبير التعلق بالدين ، وقالوا إن ذلك نتيجة طبيعية لثقافته الواسعة والظروف التى قامت فيها دولته ، ويدللون على ذلك بتسامحه مع الكنيسة الأغريقية . وهذه الدعوى باطلة من أساسها فالحوادث تظهره شديد التمسك بالدين ، عظيم الاكرام لأهله ، كريم الخلق ، شديد التواضع لله دائم الحمد له ، وإذا كان قد أظهر التسامح مع الكنيسة الاغريقية

فهذا لا ينقص من تدينه ولا يتعارض مع تعاليم الدين الاسلامى الحنيف . ومن المعروف عن السلطان الفاتح أنه كان ينظر إلى الأمور بعين السياسى القدير المتسامح لا المتعصب الضيق الأفق ، ومهما يكن من شيء فان أعمال الفاتح وفتوحاته ومجهوداته كانت كلها فى سبيل رفعة الاسلام والسمو بمركزه ، ووفق فى ذلك توفيقاً نادر المثال ، وكان أعظم أعماله القضاء على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية .

تداعى الدولة البيزنطية

لقد كانت الامبراطورية البيزنطية التى عرفها العثمانيون واحتكوا بها جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية السابقة ، كانت دولة قد سيطر البنادقة والجنويون على حياتها الاقتصادية ، وكانت كثيراً ما تقع فريسة لعدوانهما وأطماعهما . وكثيراً ما وجدت نفسها حائرة بينهما إذا صادقت فريقاً اعتدى عليها الفريق الآخر .

عمرت الدولة البيزنطية أو الدولة الأغريقية نحو ألف عام قاست فى خلالها من المحن والأهوال ما لم تقاسه دولة أخرى ، وداهمتها خطوب لو أنها داهمت دولة غيرها لقضت عليها قضاءاً مبرماً ، ومرت فى أزمات داخلية وخارجية عظيمة ، وأدت للمسيحية ولأوربا المسيحية خدمات جليلة تكل تحت عبئها أعظم الدول وأقواها .

ولكن الدول كالأفراد تماماً لها صباها ولها شبابها ولها كهولتها وهرمها ، ففى القرن الرابع عشر الميلادى أخذ الهرم والهزال والسقم يدب حقيقة فى جسمها ، فشُلت قوتها ، ونالها الاضمحلال فأوشكت على الانهيار ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه نظم الأتراك العثمانيين تزداد كل يوم إحكاماً وقوة ، وتسعى للحياة والعظمة ثابتة متفوقة . . .

سيطر فى هذه الدولة نظام الملكية الامبراطورية ، وهى ملكية مستبدة مقدسة ليس لسلطتها حد ، فهى مستمدة من الله مباشرة كما كان يعتقد فى ذلك الوقت . فالامبراطور ملك وقسيس معاً فهو إذن فوق القانون ، وهو رأس الهيئة التنفيذية ، وفى يده تتركز السلطة التشريعية ، وهو يشرف على الإدارة ويحكم الكنيسة كما يحكم الدولة .

وتمتع الامبراطور البيزنطى فى ظل ملك ثابت الأوتاد بفخامة وعظمة لا مزيد عليهما ، ورأى من أيام المجد ما لم يدانه إلا أيام البؤس ، فكانت الثورات كثيراً ما تقوم عليه حتى من أفراد عائلته بل من أولاده وأخوته فتقضى على قوته وتنزع ملكه ، فمات عدد كبير من الأباطرة غدراً أو هلكوا فى ميادين القتال وهم يعملون على قمع ثورات هاجت عليهم .

فى الملكية المستبدة يعتمد كل شىء فى الدولة على ميول الحاكم وهواه وشخصيته إن كانت ضعيفة أو قوية ، خيرة أو شريرة ، صريحة أو ماكرة معوجة ، وعلى خبرته فى الحياة وفى الحكومة ، فى مثل هذه الملكية يصبح قصر الحاكم مقر الدولة الحقيقى ومركز كل شىء ، ومصدر كل سلطة ، وفيه توضع المشاريع والخطط ، فتنشأ الدسائس وتدور المؤامرات . ففى ذلك البلاط البيزنطى الممتلئ بذوى الأطماع وذوى

الأحقاد والحافل بالرقيق المجلوب من كل مكان وبالنساء والموظفين كثرت الدسائس ، وفكر كل شخص فى نفسه قبل كل شىء وتتابع سقوط الوزراء ونبغ ذوو الشخصيات القوية أو من يستطيعون التقرب والزلفى والتقلب مع الزمن .

والواقع أن تاريخ الامبراطورية البيزنطية مملوء بالثورات والفتن والانقلابات السياسية . وبالرغم من أن النساء حجزن وراء الأسوار والحيطان فقد لعبن دوراً مهماً فى حياة هذه الدولة المديدة الأجل ، ومن قرأ التاريخ البيزنطى ولم يذكر اسم تيودورا أو ايرين ! ؟

وتجمعت مزدحمة حول الامبراطور أرستقراطية قوية تحل كثيراً من الوظائف الهامة فى الدولة ، وتتمتع بجانب كبير من الجاه والثروة والنفوذ ، وتهتم بالمأكل الغذى المتنوع والملبس المترف ، وتركن إلى حياة الملذات والشهوات .

قامت إدارة الامبراطورية فى الأصل على أساس نظم حربية فالبيزنطيون يعتبرون أن قيمة الجيش للدولة كقيمة الرأس بالنسبة للجسم ، ولذا كان الاهتمام به دائماً عظيما ، وكلما كان الجيش قوياً ومنظماً طالت حياة الامبراطورية ونعمت بمركز قوى فى أوربا وآسيا ، واستطاعت أن ترد أعداءها على أعقابهم خاسرين .

وكانت الامبراطورية تجند فى مبدأ الأمر أهالى البلاد ، وبجانب هذا لجأت إلى استخدام الجنود المرتزقة لثقتها فيهم ، فلقد كانوا محترفين للحرب ولهم دراية بفنها ، ثم هم أقوى أجساماً وأصلب عوداً من الأهالى وأقدر على تحمل الصعاب والمكاره ، وكان الامبراطور عادة كريماً فى معاملتهم لا يضن عليهم بالمال ، بل ويمنحهم الأراضى الكثيرة وجعلها وراثية فى أبنائهم من بعدهم .

وتبعاً لذلك النظام كان الجيش خليطاً من شعوب مختلفة عديدة مكوناً من عناصر غريبة لا يجمع بينها سوى حب المال والثراء والمغامرة وفى كثير من الأحيان حب السلب والنهب والغنائم ، فكانت هذه العناصر متباينة من حيث الميول والجنس واللغة والدين ، ففيه الأوروبيون والأسيويون وفيه القوط والهون والصقالبة والترك والعرب والأسبان والايطاليون والألمان ورجال الشمال من روسيا واسكندیناوه .

لقد كان لهذه الجنود أحياء خاصة فى القسطنطينية تكاد تكون مستقلة وكان لا بد لهم من قيادة حازمة قوية تستطيع كبح جماحهم وإيقافهم عند حدهم ، وحين مس الدولة العجز فى هاتين الناحيتين قاست الدولة من هؤلاء المرتزقة الأمرين ، فكانوا أخطر الناس على

حياتها ونظمها من الأعداء الخارجيين ، إذ كانوا أدرى من غيرهم بمواطن الضعف فى الدولة .

أما من حيث القوة البحرية ، فلقد كانت الدولة البيزنطية ، بحكم موقعها الجغرافى وإرثها التاريخى دولة بحرية ممتازة . وإلى القرن الثامن كان أسطولها من القوة بحيث استطاعت الاشراف على البحار الشرقية حيناً من الدهر طويلا . وإلى الأسطول يرجع الفضل فى إنقاذ حياة الدولة مراراً . ثم أهمل الأسطول نسبياً فترة من الزمن ، أولا لأن الحرب مع الخلافة العباسية ، أكبر أعداء بيزنطة ، كانت حرباً برية قبل كل شىء . ثانياً لخشية الأباطرة ازدياد قوة رجال الأسطول إلى درجة يخاف منها على الامبراطورية نفسها . ومن هنا كانت الدولة البيزنطية عاجزة عن المحافظة على جزر الارخبيل اليونانى من غارات المسلمين حين سيطر هؤلاء على جزيرة كريت ثم على جزيرة صقلية .

وفى نهاية القرن التاسع الميلادى عاد للدولة رشدها فقررت إعادة تنظيم الاسطول ، وبهذا أصبحت أول قوة بحرية فى البحر الابيض المتوسط ، واستمر ذلك التفوق غير منازع إلى أوائل القرن الثانى عشر ثم عاد إلى الدولة الضعف فى هذه الناحية بصفة خاصة حين فتح الاتراك السلاجقة معظم آسيا الصغرى ، فحرمت بيزنطة من هذه المناطق البحرية

التى كانت تجلب منها أحسن بحارتها ، ولذا اعتمدت على بحريات الدول الأخرى مثل بيزا والبندقية وجنوه ، وأهملت تماماً الإنشاء البحرى ، بل واعتبرت الأسطول مجرد مضيعة للوقت والمال .

ولم تعد للملكية الامبراطورية فى العهد الأخير هيبتها ولا مقدرتها على الإدارة والحكم . ولم تكن الأمور بمستقرة للامبراطور البيزنطى فى داخل الدولة ، ولم تكن ظروفه الخارجية بأحسن حالا ، فلقد تعددت الثورات السياسية العنيفة ، وقام على العرش نزاع يكاد يكون مستمراً بين أفراد العائلة الامبراطورية ، واستعان كل مطالب بالعرش بالفرق والأحزاب المختلفة بل وبالعناصر الأجنبية من الجنسيات المتباينة المحيطة بالدولة ، واستخدم كل منهم الجنود المرتزقة واعتصم بأعداء الدولة ، وتدخلت الجمهوريات الايطالية لصالحها الخاص ، كما تدخل الكتلان والأمارات التركية المبعثرة فى الأناضول .

تدخلت كل هذه العناصر تنصر فريقاً على فريق وتقوم بالسلب والنهب إذا سنحت لها الفرص فتخربت أراضى الدولة مما فت فى عضد الامبراطورية وألحق بها الضعف الذى أنهك قواها ولم تجد منه برءا .

كذلك لم يكن استخدام الجنود المرتزقة فى آخر الأمر فى مصلحة الامبراطورية ، فهؤلاء جنود غرباء لا تربطهم بالوطن البيزنطى

ولا بأهالى الدولة وشائج القرابة والنسب ، ولم يدفعهم لخدمة الدولة سوى رغبة واحدة هى الكسب المادى ، ولذا فهم لا يرعون إلاًّ ولا ذماماً ، ولذا فهم مستعدون فى كل لحظة للثورة وللانضمام إلى أعداء الدولة إذا لم تستطع بيزنطة إجابة مطالبهم التى لم تكن تنتهى . أصبح هؤلاء الجنود خطراً وبيلا على الدولة فاستولوا على مدنها وخربوا قراها . لقد نهب المرتزقة من الأتراك مرة سرادق الامبراطور نفسه حين فكر فى التخلص منهم .

ثم إن فقدان الدولة البيزنطية اهتمامها بالبحرية جعلها تحت رحمة البنادقة والجنويين الذين لم يكونوا مخلصين لغير مصالحهم المادية ، بل انتهزوا كل فرصة للنيل من هذه الدولة المنحلة وانتزاع الامتيازات منها والانتقاص من حقوقها ، فأشرفت الدولة على الإفلاس المادى ، ولو تمكنت الدولة من المحافظة على تفوقها البحرى لما استطاع الأتراك العبور بسهولة إلى الشواطىء الأوربية أو تثبيت أقدامهم فيها

* * *

ومن أهم العوامل التى زادت فى ضعف الدولة البيزنطية نمو دولتى الصرب والبلغار وتقلص ممتلكات الدولة فى البلقان على أيديهم .

ولم يستطع هؤلاء الصرب أو البلغار بعد أن قضوا على الملك

البيزنطى فى البلقان أن يقفوا متحدين أمام الهجوم العثمانى . وفى نفس الوقت الذى وضع فيه الأتراك العثمانيون أقدامهم فى جاليبولى ، كان على الدولة البيزنطية التى حاقت بها النكبات من كل جانب أن تصد هجمات إخوانها فى المسيحية الصرب والبلغار ثم إغارات التتار . لقد حاولت الدولة البيزنطية محاولة اليائس أن تضم صقالبة البلقان إلى جانبها لتكون جبهة متحدة متراصة لمقاومة العثمانيين وطردهم من الأقطار الأوربية التى احتلوها ، ولكن مساعيها ذهبت هباء منثوراً ، فما كانت رغبة صقالبة البلقان فى دمار بيزنطة لتقل عن رغبة الأتراك العثمانيين .

ويضاف إلى انحلال النظم وضعف الحكومة سوء سياسة الدولة من الناحية الخارجية فكان أمامها فرص ثمينة لو انتهزتها وساعدها الحظ لانتقت شر الأتراك إلى حين . ولم تستفد الدولة من انقسام الأتراك على أنفسهم فى مبدأ حياتهم بل تدخلت تنصر فريقاً على فريق ، ولم تتركهم يحاربون مواقعهم بأنفسهم ، لم تحاول بيزنطة الاتفاق مع التتار فى الوقت الذى تداعت أمامهم قوات العثمانيين . بل من الغريب حقاً أن تتفق مع فريق من العثمانيين لتثبيت دعائم ملكه وتقوية سلطانه .

كذلك لم تعمل الدولة مخلصة على توثيق صلاتها بالغرب الأوربى بترددها فى الاعتراف بتفوق رومه ، فلقد كان فريق كبير من سكانها يفضل سيطرة السلطان العثمانى على سيطرة البابا . كان عزيزاً على بيزنطة أن تقبل راضية سيطرة رومه . لقد قبل الامبراطور قسطنطين اتحاد الكنيستين فى آخر الأمر ، واحتفل بذلك فى كنيسة سانت صوفيا ، ولكن بعد فوات الوقت ، وحين انتهى أجل الدولة فلم تستطع أن تستقدم ساعة أو تستأخر .

ثم توالت الظروف السيئة على الدولة فتضرعت للغرب الكاثوليكى وقبلت شروطه ، ولكن الغرب لم يقدم لها المساعدة الكافية ولا التأييد الخالص فى محنتها العظيمة . بل إن الجنويين تعهدوا للسلطان مراد الثانى بنقل ستين ألفاً من جنوده إلى الشاطئ الأوربى

وما كانت الفوضى فى الإدارة والحكم لتعمل على انتشار الأمن واستتباب النظام فى أجزاء الدولة الباقية ، بل لقد دعتها الحروب المستمرة إلى الإمعان فى فرض الضرائب الفادحة مما دعا السكان إلى التذمر وتفضيل الحكم العثمانى حيث يستطيعون أن يتمتعوا فى ظله بالهدوء والسكينة والعدالة .

ومما أنهك الدولة وامتص حيويتها كفاحها الطويل المستمر أمام

أعداء أشداء غلاظ كثيرين لا يعصون أطماعهم ما أمرتهم ، فمن قبائل جرمانية إلى جموع صقلبية إلى خصوم من الآلان والأفار والهون والتتار والبلغاريين ، إلى غزوات العرب والصليبيين والبنادقة والجنويين إلى هجمات الأتراك التى لم تكن تنقطع ، وكل هؤلاء كانوا لا يرومون إلا دمار الدولة والقضاء عليها والاستيلاء على عاصمتها إلى أن كلت نهائياً ، وساءت حالتها المالية وفقدت معظم بلادها وخسرت قومها ورجالها وسقطت فى آخر الأمر صريعة الظروف أمام الغزو العثمانى العنيف المنتصر .

ولكن إذا كانت الدولة البيزنطية ضعيفة مفككة ، فلقد ظلت عاصمتها مدينة قسطنطين ، تحتفظ بجانب كبير من رونقها وبهائها .

مدينة قسطنطين

عمرت مدينة القسطنطينية ألف عام بعد أن بناها الامبراطور الرومانى قسطنطين الأكبر بتوسيع بيزنطة المدينة الأغريقية القديمة ، ولقد اختار قسطنطين عاصمته الجديدة فى مكان منيع يصعب الدنو منه ويسهل الدفاع عنه . وأصبحت روما الجديدة — كما كان يطلق على القسطنطينية — حاضرة دولة عظيمة ، ومركز حضارة سامية ، ورمزاً لرقى باهر ، ومصباحاً وهاجاً امتد نوره إلى الشرق الإسلامى والغرب المسيحى ، فترك فيهما آثاراً جليلة باقية ، وكانت مصدراً لا ينضب لإلهام ولوحى جديد فى الغرب كما كانت مصدراً للاعجاب والتقدير فى الشرق .

لقد كانت هذه الحاضرة ناضرة مضيئة فى وسط الظلام الحالك الذى كان يغمر العصور الوسطى فى معظم أجزاء أوربا ماعدا أسبانيا الإسلامية.

كانت القسطنطينية مركز الذوق والفن والجمال والتفكير فى كل أنحاء أوربا المسيحية ولم تكن مجرد ناقلة للحضارة الأغريقية القديمة ، فهى مدينة امتازت باتصالات مستمرة وثيقة بالشرق والغرب معاً ، ففيها تقابلت الهلينية الأغريقية بالمسيحية الشرقية فكونت حضارة

بيزنطية ، تأثرت بالشرق الفارسى ثم الاسلامى وانتفعت بحضارته وتركت أثراً واضحاً فى حياته .

كانت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية ، ورمز حضارتها ، ومركز ثقافتها ، وعنوان تمدينها ، وقلبها النابض ، وعقلها المفكر .

كانت القسطنطينية محط أنظار العالم الشرقى والغربى بأجمعه لمدة ألف عام ، هذه المدينة « المحروسة » الضخمة العظيمة الزاهرة ، باريس العصور الوسطى وموطن العلم والفن واللذة والقداسة . هذه المدينة بجمال موقعها حيث يتقابل الشرق والغرب ، البر والبحر ، بجوها المعتدل الصحى ، وبمينائها المحمية ، هذه المدينة العظيمة بميادينها العامة المتسعة وبواباتها ، وتماثيلها المبثوثة فى كل مكان ، وبكنائسها الفخمة المتعددة وأسواقها التى لا تقف حركتها ، وملاعبها وحماماتها ، هذه المدينة الشهيرة بحصونها المنيعة ومعاقلها المشيدة وقفت أمام البرابرة من هون وأفار وبلغار وروس وصقالبة ، وحالت أمام آمال الغزاة والفاتحين من فرس وعرب وترك .

هذه المدينة كان يقصدها الناس من أقصى جهات أوربا ويتغنى بها الروسى على ضفاف أنهاره ، ويردد ذكرها الأوربى ، ويطمع فى الاستحواذ عليها الشرق .

هذه المدينة الخالدة بنيت على تلال سبعة تشرف على شواطئ أوربا وآسيا ، وتنحدر بجمال وروعة إلى بحر مرمره ، وعلى انحدارات هذه التلال لمعت القصور الامبراطورية .

أمّ هذه المدينة الناس من كل جانب ، وسكنتها أجناس مختلفة ، فوصل عدد سكانها فى أوج عظمتها المسيحية إلى المليون .

ففيها الأغريق سكان المدينة الأصليين ، وفيها الأجانب ، فمن أسيويين بلحاهم الممتدة اللامعة وشعورهم السوداء ، إلى بلغاريين برؤسهم المحلوقة وسلاسلهم التى تمنطقوا بها ، إلى روسيين بملابسهم الفرائية الثمينة ، إلى اسكندناويين بوجوههم البيضاء وشعورهم الذهبية المتموجة ، إلى أرمينين وصقالبة ، ازدحم فيها الناس من كل جانب رغشيها التجار من كل صوب ، المسيحيون منهم والمسلمون فازدحم البنادقة إلى جانب الجنويين والأسبان والفرنسيين والمسلمين من بغداد وسوريا .

ويرى الناظر فيها الجنود المرتزقة بأشكالها المخيفة وصلابتها وخشونتها تسير فى المادين والشوارع الممتدة ، من فرنسيين وصقالبة وجرمان وإيطاليين وإسبان ، فاختلطت فيها الأديان وتعددت اللغات واختلفت وتباينت المشاعر والاحساسات .

عاشت هذه الأجناس الغريبة فيها جنباً إلى جنب كجاليات أجنبية ، بعضها قوى عديد والبعض منزو قليل ، عاش البعض فى أحياء مستقلة ، وتمتعت بعض هذه الجاليات بامتيازات كبيرة فلم تخضع لقوانين البلاد الأصلية ولا لتقاليدها .

وكانت حياة الارستقراطية فى المدينة حياة الأبهة والترف فرفلت فى ملابس الحرير يحليها الذهب ، وتبخترت على جيادها الفخمة المنتقاة واشتركت فى الدسائس وقامت بالثورات .

كانت القسطنطينية فى أوربا مدينة الدنيا والدين ، فإلى جانب فخامة البلاط الامبراطورى وقصور النبلاء الجميلة وملاهى الهبودروم والملاعب المكتظة باللاعبين والنظارة ، كانت عظمة الاحتفالات الدينية وأبهتها ، فلله كانت كنيسة سانت صوفيا ، وللدنيا وللهو كانت الملاعب ، وحول هذه جميعها دارت الحياة فى القسطنطينية .

فى هذه المدينة الهائلة تمثلت حياة الدين بأجلى مظاهرها وأروعها وأرهبها ، وقامت الدراسات والمجادلات الدينية بنشاط واهتمام وحماس منقطع النظير ، فمن الامبراطور إلى النبلاء إلى رجال الدين إلى التجار أحب الناس جميعاً المناقشات الدينية وشغفوا بها . وكانت هذه المناقشات تنقلب فى كثير من الاحيان إلى تنازع شديد وقتال تسيل فيه الدماء

فلم تخل هذه المناقشات والمجادلات الدينية من المطامع والاحقاد الشخصية والرغبات الدنيوية والمصالح الخاصة .

وظهرت فى المدينة شتى الاعتقادات من أسماها إلى أدناها ، فكان فيها احترام الاولياء والاعتقاد فى قدرتهم الربانية ومعارفهم الغيبية ، ووثق الكثير من الناس فى تنبؤاتهم ، وبنوا على توجيهها حياتهم ، وانتشرت الخرافات والاساطير وصدقها الجم الغفير من أهالى هذه المدينة الزاخرة .

فى هذه المدينة العظيمة كان الاهتمام كبيراً بتشييد الكنائس والاديرة والوقف عليها ، فكانت هذه منتشرة فى أنحاء المدينة رمزاً للاحساس الدينى العميق المتأصل فى نفوس السكان ، وكان رجال الدين والرهبان موضع الاحترام الزائد والاكبار ، ولهم تأثير كبير على عقول الناس وسلطة واسعة وقوة حقيقية ، فلقد اعتقد الناس فيهم قوة إلهية ومواهب ربانية . وكان الاباطرة أنفسهم يظهرون التعلق بالدين ويوقرون رجاله توقيراً كبيراً ويقدسون أماكنه ، ففى سانت صوفيا التى شادها الامبراطور جستنيان كان يتوج الامبراطور ، وفيها يحتفل بالاعياد ، وهى فوق صفتها الدينية كانت مركزاً كبيراً من مراكز الحياة العامة .

كانت هذه الكنيسة من عجائب القسطنطينية ، فقبتها العالية وصفها المعاصرون وكأنها « معلقة من السماء بسلسلة ذهبية » . وكان جمال زخارفها ورونقها وأعمدتها ورخامها يبهر النظر . وأما مصابيحها الوهاجة وبخارها العبق ، وأما الحفلات الدينية التى كانت هذه الكنيسة عامرة بها والآيات والأناشيد التى ترتل فيها والصلوات التى تقام فكانت تبعث فى النفس الروعة وتشعرها بالجلال وتملؤها بالخضوع .

وبجانب ذلك الجلال والبهاء قامت القصور الفخمة العامرة بالملذات والترف وانتشر الفساد الخلقى والرشوة ، وقامت أماكن كان يباع فيها الشرف والعرض وكل فضيلة إنسانية فى سبيل متاع وقتى زائل .

واهتم الأغنياء باشباع البطون واقتناء الأيقونات وأدوات الزينة وبالشهوات ، وقامت أماكن اللهو والملاعب يمر فيها القواد المنتصرون يسير خلفهم أسرى الحرب ، هذا فى وقت عز القسطنطينية . وجرى فى الملاعب سباق العربات ومنازلة الرجال ومصارعة الحيوانات وأعمال الأكروبات ومهازل المضحكين . وفى هذه الملاعب عبر الناس عن أفكارهم ، عن رضاهم واستيائهم . وفيها كانت توضع بذور الثورة وتقوم الثورات التى قد تهز عروش الأباطرة البيزنطيين .

وقامت بيوت الفساد والدعارة إلى جانب الكنائس والأديرة ،

وكما فاقت هذه المدينة المدن الأخرى فى العظمة والفضيلة فاقتها فى الفوضى والرذائل . فمن الميادين العظيمة تعرجت الأزقة المظلمة الموحلة وامتلأت بالكلاب واللصوص وقطاع الطرق ، وكثرت فيها حوادث السرقة والاغتيال والغدر والقتل .

كانت القسطنطينية مدينة ثقافية ممتازة ، فمركزها فى شرق أوربا كمركز رومه فى غربيها ، وهى فى ثقافتها متأثرة بالقديم إلى حد كبير ، محتفظة بالتراث الأغريقى . فمكاتبها الكبيرة مملوءة بالكتب الأغريقية مزدحمة بالقارئين والدارسين ، وكان الأدب اليونانى محور الثقافة والتعليم ، بجانبه دراسة الكتاب المقدس وقصص القديسين والشهداء والحساب والموسيقى والأجرومية والبلاغة . لقد كانت جامعة القسطنطينية مركز الثقافة اليونانية موئل الدراسات الكلاسيكية . ومن هذه المدينة العظيمة تعلمت إيطاليا فلسفة أفلاطون ، ومنها أخذ العرب القانون وجانباً كبيراً من الثقافة اليونانية ، وإذا كان لهذه المدينة تراث يخلد ذكرها فى العالم فهو الأدب الأغريقى والقانون الرومانى ، فأباطرة القسطنطينية هم الذين جمعوا القوانين الرومانية ، إرث رومه العظيم ، وقننوها ونشروها .

وتمتع سكان هذه المدينة العظيمة بامتيازات لا يشاركهم فيها أحد

فكانوا معفين من الضرائب توزع عليهم الحكومة مجاناً ما يلزمهم من الخبز والنبيذ والزيت ، وذلك حين كانت ثروة الامبراطورية عظيمة ورزقها متوفراً وجانبها مهاباً .

والقسطنطينية مدينة صناعية وتجارية عظيمة بحكم موقعها الجغرافى المنقطع النظير فى ذلك الوقت . فهى تقع فى موضع ممتاز للاتصال بين الشرق والغرب ، و بين الشمال والجنوب ، و بين البحر الأسود والبحر الأبيض ، فهى من مراكز العالم المهمة فى ذلك الوقت للتجارة ، تأتى إليه المتاجر عن طريق البحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ، من فارس والهند والشرق الأقصى وأواسط آسيا ، من اسكندناوه وشرقى أوربا وغربيها ، متاجر العالم المعروف فى ذلك الوقت تجمعت فى القسطنطينية وآوت إليها السفن من كل فج فكانت ميناؤها فى القرن الذهبى تعج بحركة دائمة وسهلت الحكومة البيزنطية كما سهلت الحكومة العثمانية من بعدها وسائل العيش والاتجار وتبادل المنافع ، واشتهرت أسواقها بمواد الترف والزينة والمصوغات والأيقونات والعطور والمنسوجات الحريرية والكتانية الجميلة ذات الألوان الساطعة اللامعة ، و إلى جانب التجار وجد الصيارفة يزاولون مهنتهم بنجاح كبير .

لقد تفوقت القسطنطينية كما رأينا على غيرها من المدن فى مظاهر

الحياة ، وكان موقعها ومناعتها وغناها وثروتها ومبانيها ومباهجها ومركزها في العالم المسيحي من الأمور التي دعت الشرقيين من العرب والأتراك إلى محاولة الاستيلاء عليها وتحويلها من حاضرة للمسيحية إلى مركز مهم للإسلام .

قصة فتح القسطنطينية

كان فتح القسطنطينية أمنية من أكبر أمانى المسلمين منذ نشأة دولتهم . فلقد حاولوا الاستيلاء عليها مراراً قبل عهد السلطان الفاتح . ففى دمشق كان معاوية بن أبى سفيان يمنى النفس بالاستيلاء على مدينة القياصرة ، ويرى فى ذلك تثبيتاً للخلافة الأموية ومجداً لا يماثله مجد ، فأرسل قوة عظيمة إلى البوسفور لم تبال بما قاسته من المرض وقلة الزاد ، وأمدها بابنه يزيد .

كان القتال حول هذه المدينة دائماً عنيفاً ، وكانت خسارة المسلمين فيه دائماً كبيرة ، وظل معاوية يرسل بحملات سنوية استولت فعلا على إحدى الجزر القريبة من القسطنطينية لمدة سبع سنوات ثم تركتها حين تولى يزيد الخلافة . أنقذ المدينة تفوق البيزنطيين البحرى ثم النار الأغريقية التى عرفت فى ذلك الوقت ، وفى هذا الحصار وتحت أسوار المدينة العظيمة استشهد أبو أيوب الأنصارى الصحابى المشهور ، فأصبح لمدينة قسطنطين مركز خاص فى نفوس المسلمين .

ولكن حلم الأمويين بالاستيلاء على هذه المدينة لم ينته بموت معاوية ، فما أن استقر لهم الملك حتى عادوا يعدون العدة لتحقيقه ،

فكانت المحاولة الثانية فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وكان الوليد قبل مماته قد أعد تجهيزات عظيمة برية وبحرية لتحقيق هذا الغرض المنشود . هاجم مسلمة بن عبد الملك المدينة براً وبحراً فى عهد الأمبراطور ليو الثالث . وكان ذلك الرجل ممتازاً فى الحرب والسياسة فاستطاع أن يضم البلغار إلى جانبه ، كما استطاع أن يهزم المسلمين براً وبحراً ، ولعبت النار الأغريقية دورها بنجاح فى هذه المرة أيضاً .

كانت محاولة مسلمة آخر محاولة جدية قام بها العرب لفتح هذه المدينة ، فلقد اضطرب أمر بنى أمية ، وجاءت الدولة العباسية فشغلت عن مدينة القياصرة بسكنى ديار الأكاسرة ، ولم تعد تهتم بأمر الأسطول وظلت مدينة القياصرة الشرقيين منيعة باقية إلى أن جاء الأتراك العثمانيون .

فكان أول من حاصرها منهم السلطان بايزيد الأول ولكنه اضطر لرفع الحصار عنها حينما بلغه غزو التتار لبلاده ، ثم حاصرها السلطان مراد الثانى ، ولكن ضعف الأسطول العثمانى وعدم وجود المدفعية القوية كانا عاملين على تركها ، ويكفى أن ننظر إلى الاستعدادات العظيمة التى قام بها السلطان محمد الثانى و إلى المشقة التى وجدها فى الفتح حتى نعرف إلى أى حد كانت القسطنطينية منيعة قوية

ولم يكن العرب والترك وحدهم هم الذين تاقت نفوسهم لفتح هذه المدينة فلقد حاصرها الأفار والبلغار وفشلوا فى الاستيلاء عليها ، ثم فى أوائل القرن الثالث عشر غزاها اللاتين والصليبيون وفتحوها عنوة ، ثم عادت الدولة البيزنطية للظهور فى القسطنطينية مرة ثانية بعد أن ضعف اللاتين وذهبت ريحهم .

* * *

الممهدات للحصار

ثم قضى الله أن يستولى الأتراك العثمانيون على هذه المدينة الخالدة فى منتصف القرن الخامس عشر .

ففى ٣ فبراير سنة ١٤٥٢ مات السلطان مراد الثانى عدو المسيحية الأكبر الذى كان اسمه يبعث الرعب فى الدولة البيزنطية وفى أوربا ، مات فى أدرنه عاصمة دولته الأوربية بعد حياة حافلة بالانتصارات الرائعة على المجريين ومن حالفهم من سكان شبه جزيرة البلقان .

وكان ابنه محمد لا يزال مقيما فى مدينة مغنسيا فى آسيا الصغرى قد أبعد عن أمور الحكم والسلطنة بعد ما تولاها مرتين ، وكان لا يزال حديث السن لم يمض بعد الحادية والعشرين من عمره ، وكان لا يزال

قريب عهد بالزواج من بنت الأمير التركى نورجاتير ، وصلته أخبار وفاة والده فلم يعلنها خوفاً من ثورة الانكشارية ، وأسرع بمغادرة هذه المدينة إلى جاليبولى فوصلها بسرعة كبيرة ، وفى غاليبولى أعلن نبأ وفاة أبيه ، ثم دخل مدينة أدرنه حيث أعلن سلطاناً للأتراك العثمانيين باسم محمد الثانى ، وفى أدرنه استبقى وزراء أبيه خليلا واسحق بالرغم من حقده الشخصى عليهما ، فكثيراً ما كان هذان الرجلان يخشيان بأسه ويحذرانه ويثنيان أباه عن عزمه فى التخلى عن السلطنة له ، ولكن محمداً الثانى أراد الاستعانة بهما فى أمور الحكم لتجاربهما الواسعة ولدرايتهما بشئون الدولة ولتعلق الجنود بهما .

وأما معاصره قسطنطين فقد ولد قبل محمد الثانى بنحو ربع قرن من الزمان ليرث أضخم المسئوليات وأخطرها ، ليرث أمبراطورية قد يبقى منها الاسم والرمز ، وغادرها العز والمنعة ، امبراطورية لم يبق منها إلا مدينة ، ولكنها مدينة تملك سحراً وبهاء وجمالا وجاذبية لم تكن لأى مدينة أخرى فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى .

كانت السنة الأولى التى تولى فيها السلطان محمد الثانى لحظة رهيبة فى حياة الأمبراطورية البيزنطية ، هذه الدولة التى انحلت قواها أمام هجمات الأتراك المتوالية العنيفة ، لقد فقدت هذه الدوله كل ممتلكاتها

تقريباً ، واستطاع الأتراك رغم أنفها ورغم أنف الأمم البلقانية ، نقل عاصمتهم إلى أدرنة التى اتخذوها مقراً لحكمهم ، ومعسكراً عاماً لجنودهم لشن حروبهم وغزواتهم فى كل جهات البلقان ، وتمكنوا من الاشراف على المضايق ، على الدردنيل وعلى البوسفور ، وفرضوا الجزية على الدولة البيزنطية البائسة .

لقد كان مجىء السلطان محمد الثانى مثيراً للرعب والفزع فى القسطنطينية ، فلقد كان أهلها يعلمون حق العلم أنه أقسم ليستولين على هذه المدينة وأن ذلك سيكون أول مهمة يكرس حياته فى سبيل القيام بها . لقد كان الاستيلاء على هذه المدينة الخالدة حلم أحلامه منذ صغره . وكانت عنده القوة العظيمة وأمامه الظروف المواتية للنجاح فى تنفيذ مشروعه الخطر .

ما كانت العلاقات العثمانية البيزنطية حينما تولى محمد الثانى علاقات إخلاص وصداقة ، فكان الأتراك العثمانيون موقنين بأن البيزنطيين سينقضون مواثيقهم إذا أتت أول فرصة ، فكثيراً ما اتفقت بيزنطة مع أعداء العثمانيين إن لم يكن علانية فسراً ، وأباطرة بيزنطة ينتهزون كل الظروف للإيقاع بين العثمانيين و إثارة الانقسام بينهم ، فهم دائماً يعضدون الأمراء الثائرين المطالبين بالعرش العثمانى . ومحمد الثانى يذكر

جيداً موقف بيزنطة حين أغار التتار . وقسطنطين لم يحسن التصرف حين تولى السلطان الجديد فلم يعمل على كسب ثقته بل لقد ظن فيه الضعف ، واعتقد فيه التردد والخوف ، فتقدم إليه بمطالب أثارت غضبه وحفيظته ، فلقد أيقن أن قسطنطين يريد الانتقاص من كرامته وأنه يهدد ملكه ، لقد طلب قسطنطين زيادة المرتب الذى يدفعه السلطان للدولة البيزنطية نظير تكفلها بأحد أبناء سليمان بن بايزيد الأول واسمه أرخان ، ولمّح الامبراطور البيزنطى بأنه إذا لم يجب طلبه سيطلق سراح ذلك الأمير ليطالب بالعرش العثمانى ويثير المشاكل للسلطان الجديد .

إذن فالمسألة مسألة حياة أو موت فى نظر السلطان محمد الثانى ، فكيف ينسى لقسطنطين ذلك الموقف ، وخاصة وأنه كان فى ذلك الوقت مشغولا بإخماد ثورة فى آسيا الصغرى ، ولكنه رد بأدب ، وحذر البيزنطيين الضعاف عواقب سياستهم وسوء تصرفاتهم وبين لهم أن الفرق شاسع بين خلق السلطان الجديد وخلق أبيه مراد ، فمراد يمتاز بالهدوء ، ولكن السلطان الجديد لايحتمل الإهانة ولا يصبر على ضيم .

وكان السلطان محمد الثانى قد وطد العزم على فتح العاصمة الاغريقية ولذا رأى توطيد دعائم ملكه قبل القيام بذلك المشروع الخطير .

رأى محمد أن البيزنطيين ليس لهم عهد ولا يمين ، فلقد كان يذكر لهم المواقف السيئة فى عهد أبيه ، ألم تؤيد القسطنطينية فعلا مطالباً بالعرش العثمانى ؟ ألم تمده بالسفن وتسهل له العبور ؟ ألم تعمل بيزنطة على إثارة القلاقل ضده فى آسيا الصغرى ؟ إذن ففتح القسطنطينية والقضاء على هذه الدولة أمر لا بد منه إذا أراد العثمانيون ثبات ملكهم وحرصوا على مستقبلهم .

وكانت حال المدينة العامة سيئة للغاية ، فهى وضواحيها كل ما اشتملت عليه الامبراطورية الأغريقية ، وليس لديها من الجنود المدربين إلا العدد القليل ، وأما من السفن فبضع لا تغنى فتيلا فى وقت المحن ولا ترد جليلا من الحظوب.

وكثرت البعثات السياسية التى أرسلتها القسطنطينية إلى أوربا طالبة الغوث والنجدة ، كما يقول مؤلف تاريخ الصليبيين فى العصور الوسطى المتأخرة [1] ، لكن كانت هناك مصاعب عظيمة فى سبيل نجاح هذه البعثات ، وأهم هذه المصاعب اختلاف الكنيستين الشرقية والغربية ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، والنزاع بين بيزنطه وروميه .

ولقد بذلت مساع دبلوماسية هائلة فى سبيل التوفيق بين الشرق

---

(١) الدكتور عزيز سوريال .

البيزنطى الأرثوذكسى والغرب الرومانى الكاثوليكى . ولكن البابوات لم يستطيعوا قبول ذلك التوفيق إلا إذا اعترفت رسمياً الامبراطورية البيزنطية ورجال الدين البيزنطيون بتوحيد الكنيستين على حساب بيزنطة طبعاً . وعلى أساس ذلك الشرط وحده تستطيع البابوية أن تعمل على إثارة العالم المسيحى الغربى لمساعدة بيزنطة فى كربها ضد المسلمين .

وربما لم يكن لدى الامبراطور البيزنطى قسطنطين مانع من قبول هذا الشرط المهين ، ولكنه كان يعلم حق العلم أن الأكثرية من سكان مدينة القسطنطينية ومعظم قساوستها معارضون لهذه الفكرة عاقدوا العزم على رفضها ومحاربتها .

ولم تكن هذه المحاولة أول محاولة من نوعها ، ففى المدة الواقعة بين سنتى ١٠٥٤ و ١٤٥٣ كانت هناك ثلاثون محاولة لاتحاد الكنيستين وكان هذا الاتحاد غاية ما يصبو إليه أباطرة الغرب والبابوات — فلقد كان هذا التوحيد فى نظرهم أنجع علاج للأمراض العضال التى تعانى منها المسيحية ولضعفها المتزايد . فإذا تم ذلك التوحيد بتنازل الشرق عن كنيسته وقبول سيطرة روما ، إذن تعود للمسيحية قوتها الأولى ووحدتها ، وإذن تستطيع الوقوف أمام قوات الإسلام التى يزداد خطرها يوماً بعد يوم .

قامت محاولات ، ولكن قامت فى سبيلها صعوبات ، فهناك مواضع للخلاف كبير على الكنيسة الشرقية قبولها ، واختلطت المصالح السياسية بالمصالح الدينية إلى حد كبير ، بحيث لم يكن من السهل الفصل بين المصلحتين أو تغليب إحداهما على الأخرى .

ولم يستطع أحد من الفريقين التخفيف من تعصبه ، فعامل كل واحد الآخر كملحد وخارج على الدين المسيحى ، ووصل الأمر إلى درجة أن الغرب الكاثوليكى لم يكن يهدد بحروبه الصليبية الإسلام وحده ، بل كان يهدد الأرثوذكسية ذاتها والقسطنطينية بحرب صليبية لا تبقى ولا تذر . ولم يكتف الغرب بحملته الصليبية الرابعة على هذه المدينة ، بل كان يفكر متأثراً بالبابوية فى إعداد حملة صليبية أخرى تقضى هذه المرة القضاء المبرم على الأرثوذكسية .

ولكن تهديد الأتراك المستمر للقسطنطينية جعل الأباطرة البيزنطيين ينزلون مرغمين عن كبريائهم ، ويطلبون النجدة والعون أياً كان الثمن ، فأعلنوا رغبتهم فى توحيد الكنيستين وقبول سيطرة روما ، وحاولوا تبرير تحالفهم فى بعض الأوقات مع الأتراك بأنهم مستعدون للقيام عليهم ومحاربتهم متى نفذ الغرب وعده وفى الوقت المناسب الموعود .

وإزاء ذلك جاهد البابوات فى سبيل إثارة العالم المسيحى على المسلمين والاسراع بنجدة بيزنطة ، ولكن هذه المجهودات كانت فاشلة فى كثير من الأحيان حتى مع الجمهوريات الإيطالية ، البندقية وجنوة ، وحتى مع فرسان رودس . ذهبت معظم هذه المجهودات هباءً منثورا .

وكان أباطرة القسطنطينية يسعون جادين إلى الاتحاد مع الغرب كلما هددهم الخطر التركى ، فإذا خف ذلك الخطر أهملوا الغرب كلية ، فلقد كانوا يرون فى ذلك الاتحاد سلاحاً ضد الأتراك ، فكانوا معنيين قبل كل شئ بالمساعدة المالية والحربية التى يستطيع الغرب أن يقدمها لهم . ولكن أهل المدينة أنفسهم وقساوستها رفضوا اتحاد الكنيستين ، وكانوا مستعدين للتضحية باستقلالهم السياسى فى سبيل استقلالهم الدينى . فلقد كانت ذكرياتهم عن سيطرة اللاتين ذكريات ساخطة ممعنة فى الإيلام ، ففرض الوحدة بالقوة فى سنة ١٢٠٤ أثار حقد الأغريق الهائل ، ورغبتهم فى الانتقام .

وعلى أى حال لم تنجح دعاية البابوية إلا فى تكوين حملة صليبية واحدة كانت نهايتها المحزنة فى نيكوبوليس ، ولم يعد من السهل بعد ذلك تكوين حملات صليبية أخرى لنجدة القسطنطينية .

ولكن فى هذه المرة كان الخطر عظيما على القسطنطينية إلى درجة

تهدد حياتها ، وكان لزاماً على البابوية أن تقدم بعض المساعدة ، لا سيما وأن قسطنطين كان مستعداً للاعتراف رسمياً بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية توحيداً نهائياً . فوعد البابا بإرسال أسطول وأرسل فعلا الكردينال ايزيدور مندوباً عنه ليقبل خضوع الكنيسة الشرقية الرسمى

* * *

بدأ الكردينال ايزيدور رحلته إلى القسطنطينية الخائفة فى أواخر سنة ١٤٥٢ ، ووصلها فى ديسمبر من هذه السنة ، وأقيم حفل عظيم فى كنيسة سانت صوفيا حضره الامبراطور البيزنطى والبطريرك جريجورى يساعده ثلاثمائة قسيس للاحتفال بتوحيد الكنيستين ووحدة المسيحية .

و بجانب ذلك الفريق الراضى عن التوحيد أو المتظاهر بالرضا ، وجدت معارضة قوية غاضبة ثائرة على رأسها جناديوس ، هى فى ريب مما يدعو إليه الفريق الأول ، وهى تنذر بالويل والثبور إذا تم ذلك الاتحاد . وكثرت النبوءات عن العذاب الذى سيلحق بيزنطة إذا تمّ اتباع الملة الغربية ، وهى تقول بسقوط الامبراطورية و بغضب الله إذا سيطرت رومه على مدينة قسطنطين ، ونادى أتباع جناديوس بالموت والدمار لمن يعتنق الكاثوليكية ، وسحقاً لمن يقبل الاتحاد معها ، ودعوا

العذراء مبتهلين أن تنجى المدينة العظيمة من الخطر التركى الداهم ، كما أنجتها من قبل من الأكاسرة الفرس ، والخلفاء العرب .

ما كان جم غفير من أهل القسطنطينية يعتقد مخلصاً فى الملة الجديدة ، وهى الكثلكة الغربية ، بل هم منها فى شك مريب ، وحتى الامبراطور قسطنطين نفسه الذى تربى تربية إنسانية بمعنى الكلمة ، وتثقف ثقافة حقيقية كان عنده نفس الشعور ، إلا أنه قبل ذلك الاتحاد لأسباب سياسية قبل كل شئ على أمل مساعدة الغرب الكاثوليكى فى محنته الوشيكة الوقوع .

وأما السلطان محمد الثانى خصمه العنيد فلقد استعد للحرب بكل ما لديه من قوة ومن عتاد الخيل وأدوات الحصار ، ولكن الكثيرين من أهل القسطنطينية رأوا أن امبراطورهم قسطنطين قد ارتكب شيئاً إدًّا تخر له الجبال هدًّا بقبوله اتحاد الكنيستين ، ورأوا فى ذلك محنة المحن ومهزلة الدهر ، وخطوة غير عملية ، وخطة خاسرة . بل لقد قال أحدهم والخطر محدق بمدينتهم أنه يفضل أن يرى فى مدينة قسطنطين الأكبر عمامة السلطان عن أن يرى قبعة البابا . وكان يشارك هذا الرأى الكثيرون من أهل المدينة الذين كانوا يمقتون اللاتين مقتاً شديدا .

وفى ذلك الوقت العصيب كان الشغل الشاغل للسلطان محمد الثانى

هو الاستعداد لفتح أم المدن وملكتها ، فهو يفكر ليل نهار فى فتح هذه المدينة العظيمة ، كما يروى هامر [1] عن أحد خصوم السلطان المعاصرين . فهو يقضى النهار وزلفاً من الليل قلقاً مضطرباً مفكراً فى كيفية الاستيلاء عليها ، وهو لا تكاد تفارقه خرائط المدينة التى جعل دراستها عمله اليومى ، وهو يدرس مواضع أسوارها ومواطن الضعف فيها ، وهو يضع الخطط تلو الخطط للتغلب على قوة دفاعها ، وهو يدرس التفاصيل الدقيقة بصبر واهتمام لا مزيد عليهما .

لقد عرض عليه الامبراطور البيزنطى السلام ، ولكن محمداً ما كان يعتقد فى سلام البيزنطيين ، ولا يعطى أهمية كبيرة لكلمة زعماء المسيحية ، فهم فى نظره لا يربطهم مع المسلمين عهد ولا ذمام ، ألم يصرح أحد الكرادلة فى عهد أبيه السلطان مراد الثانى بأن المسيحيين فى حل من نقض معاهداتهم مع المسلمين ، وقال إن نقض المعاهدات مع المسلمين ليس مخالفاً للدين المسيحى ؟! فكيف يستطيع السلطان أن يصدق إذن كلمتهم أو أن يرتبط بوعد من وعودهم ؟

ثم مسألة ثانية ، لقد وفقت الدولة البيزنطية موقفاً غير ودى فى محنة الدولة العثمانية حين غزا التتار بقياد تيمورلنك آسيا الصغرى ، أليس

---

(١) فى مؤلفه ، تاريخ الدولة العثمانية .

وجود الدولة البيزنطية حجر عثرة فى سبيل إشراف العثمانيين التام على البلقان وقاعدة ضد العثمانيين فى وسط بلادهم ؟ وجودها وحده عامل على تشجيع الغرب على محاولة طرد العثمانيين من أوربا .

لقد عرف محمد الثانى أن مهمته حقيقة خطيرة وخطرة ، ولكنها واجبة النفاذ ، فعمل على تمهيد الطريق لتنفيذ مهمة حياته وأكبر آماله .

فعمل أولا على استقرار الأمور فى أراضى الدولة العثمانية . فأقر من عاونوا أباه فى الحكم كما ذكرنا ، وتخلص ممن ظن أنهم سيوجدون له مشاكل عاجلة أو آجلة أو سيكونون مصدر ثورات عليه فى المستقبل ، فهو يؤمن بضرورة استقرار الملك قبل كل شئ مهما بذل فى سبيل ذلك من تضحيات ومهما أراق فى سبيل ذلك من دماء . فماذا يهم فى نظره دماء جملة أشخاص فى سبيل القيام بمهمته العظيمة ، وهى مهمة ترفع من شأنه ، وتخلد ذكره ، وترقى بمركز الإسلام .

ولم يغفل السلطان محمد الثانى الوسائل السياسية ، فالأمور الدولية تحل بوسائل السلم كما تحل بوسائل الحرب ، وكل منهما له وقته المناسب وظروفه الخاصة ، ولا بد من تأمين حدوده وإسكات أعدائه . ولذا أخضع الثورات فى ولاية قرمان ، وعمل على استصلاح النفوس فى آسيا الصغرى ، هذا فى ممتلكاته الآسيوية . أما فى أوربا فلقد عقد صلحاً

مع أكبر عدو وأخطر منافس للعثمانيين فى البلقان ، وهو هونيادى المجرى ، صلحاً يضمن به السلام على حدوده لمدة ثلاث سنوات . وهو وإن لم يكن يثق كثيراً فى مثل هذه المعاهدات إلا أنه يعرف أن موقعة ورنه ثم موقعة قوصوه فى عهد أبيه الغازى قد أعطتا لهونيادى المجرى درساً قاسياً لن ينساه ، فلقد أضعفتا قوة المجر إلى درجة لا تجعلها تفكر جدياً فى العبث بالعهد أو النكث بالاتفاق أو الانتقام .

وبيَّن السلطان محمد الثانى فى نفس الوقت أنه لا ينوى الغدر بالامبراطور البيزنطى ، وهدأ من روع صقالبة البلقان الذين كانوا قد ذاقوا من قبل سيوف العثمانيين .

وإذا كان السلطان محمد يستخدم الوسائل الدبلوماسية لخدمة أغراضه ، فما كان الامبراطور البيزنطى بمغفلها ، فقسطنطين شخصية عظيمة ، جم النشاط ، عظيم الصبر ، بطل من أبطال العصر ، ولكن مولده لم يكن سعيداً وطالعه لم يكن ميمونا ، وصفقته بإرث بيزنطة ومصائبها وآلامها كانت صفقة خاسرة . ضحى قسطنطين أولا بالأرثوذكسية حتى يقنع الغرب بمساعدته فى أزمته ، وحاول التزوج إلى الغرب حتى يوثق أواصره به ، ولم يكن هذا الزواج أول زواج أو ثانيه لذلك الامبراطور الشجاع التعيس الحظ .

وفى أثناء ذلك كان السلطان محمد الثانى قد ثبت قواعد ملكه فى آسيا وفى أوربا ، وكان عليه أن ينفذ وصية والده ، وأن يحقق رسالته بفتح المدينة الخالدة . فحوّل مدينة أدرنه عاصمة العثمانيين فى أوربا إلى مصنع هائل للأسلحة ، وجعلها مركزاً لجيوشه المتجمعة من كل أنحاء دولته ، وبنى دار السعادة الجديدة لسبك المدافع الكبار وصنع الأسلحة واهتم بجعل عاصمته مركزاً لتموين جنوده . ثم كان عليه أن ينشئ مركزاً جديداً من مراكز قوته فى أوربا ، حتى يستطيع الاشراف التام على البوسفور من ناحية الشاطئ الأوربى .

وكان السلطان بايزيد الأول الغازى قد شيد على ساحل البوسفور الأسيوى حصناً منيعاً هو أناضولى حصار لكى يشرف على مدخل البحر الأسود ، فالحصن الذى شيده السلطان محمد الثانى ، وهو روميليا حصار ، بنى لكى يواجه ذلك المعقل بحيث يستطيع الأتراك من هذين المعقلين أن يشرفوا إشرافاً تاماً على البوسفور ، وعلى مدخل البحر الأسود . وبذا يصيرون مسيطرين سيطرة تامة على الطرق الشمالية إلى القسطنطينية .

وهذا المعقل الجديد سيكون مركزاً مهماً من مراكز العمليات الحربية فى أوربا ، ومحطة كبيرة للمعدات والذخائر ، وشحنه السلطان

محمد بالآلات النارية والمدافع والمرامى الرعدية والمكاحل (وهى مدافع يقول عنها صاحب صبح الأعشى أنه يرمى عنها بالنفط . . . و بعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر . و بعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل) . وبهذا المعقل يستطيع السلطان بسلام تام وأمان نقل رجاله ونقل المؤن الحربية والعتاد الحربى بسهولة فى ذلك الحيز من الماء الذى يقع بين شاطئى البوسفور والذى يبلغ نصف الميل .

وكانت الدولة البيزنطية عاجزة إلى حد أنها كانت ترى تنفذ مثل ذلك المشروع الضخم ، ولكنها ما كانت مستطيعة منع السلطان من إنجازه .

لم يصبح السلطان محمد الثانى بذلك الحصن الحصين مسيطراً على البوسفور فحسب ، بل يصبح مسيطراً على بحر مرمره أيضاً ، ولذا كان يؤمل أن يكون فى مقدوره غلق البوسفور ، والإشراف على الطرق البحرية المؤدية إلى المدينة من ناحية الجنوب ومن ناحية الشمال ، وعزلها نهائياً بجيوشه البرية ، فلا تستطيع استقبال أى مدد أو أية معونة من أى ناحية . ومن الغريب أن ضعف الدولة من الناحية البرية والبحرية وصل إلى حد أن حاول الامبراطور البيزنطى التقرب إلى السلطان زلفى

بإمداد عماله بالمواد الغذائية حتى يسهل إتمام المشروع بسرعة ! !

واستغرق إتمام ذلك المشروع الكبير بضع شهور . فذعر أهل القسطنطينية وأحسوا بالخطر الداهم يهدد حياتهم ومصيرهم ، وشعروا بأن نهاية الدولة آزفة لا محالة . وتكرر احتجاج الامبراطور على ذلك العمل وأشار إلى أن ذلك العمل ليس وديًا بأى حال إزاء دولة تربطها بالدولة العثمانية رابطة الجيرة ، ولكن ذلك الاحتجاج لم يكن بذى جدوى إذ لم يستمع إليه السلطان ، بل قابله بالتهديد والوعيد ، فهو يعلم أن الجيش الامبراطورى البيزنطى لا يستطيع رد العثمانيين فليست له قوة خارج أسوار المدينة العظيمة ، ولقد ذكر السلطان قسطنطين كما يروى هامر بأن كل الأراضى الواقعة خارج أسوار القسطنطينية ملك له يتصرف فيها كيفما يشاء ، فهو له الحق فى كلا جانبى البوسفور الشرقى لأنه يقطنه العثمانيون والجانب الأوربى لأن البيزنطيين لا يحسنون الدفاع عنه ، وأنه مضطر اضطراراً إلى بناء ذلك الحصن ، وبيّن له كيف حاولت الدولة البيزنطية أن تمنع العثمانيين من العبور حين قامت الحرب بينهم وبين المجر فى عهد أبيه السلطان مراد الثانى .

ولم يستطع قسطنطين دفعاً للخطر المجاور له ، ولم يستطع منع العمال من السير فى عملهم بهمة ونشاط ، ولم يستطع منع الجنود العثمانيين من

اكتساح كل القرى والضياع المجاورة للقسطنطينية ومن هدم المبانى والمساكن لاتمام بناء حصنهم على ضفة البوسفور .

ولقد أخذ السلطان محمد الثانى على عاتقه الإشراف على انجاز ذلك الحصن ، وأعلن لرعايا سلطنته فى آسيا وأوربا أن يمدوه بالصناع والعمال للإسراع فى إتمام مشروعه الكبير . فسار العمل بدقة وسرعة غريبتين ، ولم يترك السلطان مجالا لأى شئ شأنه فى كل مشاريعه الحربية .

اختار السلطان المكان بنفسه ، وأظهر باشاواته وكبار موظفيه ولاءهم وإخلاصهم بالاشتراك مع العمال فى نقل الأحجار والملاط والأدوات اللازمة للبناء .

وتقول بعض الروايات أن خمسة عشر ألف عامل قاموا بانجاز ذلك المشروع وتروى الأخرى بأنهم كانوا ستة آلاف فقط . وربما كان الرأى الثانى هو الأصح . ولقد كلف السلطان محمد قواده بأن يشرف كل منهم على جزء خصصه له ، وأشرف بنفسه هو على الجميع .

وبذا لم تعد تصل إلى القسطنطينية الغلال التى كانت تأتيها عن طريق البحر الأسود . ولقد تمّ إنجاز المشروع فى أغسطس سنة ١٤٥٢ ولم يستطع الامبراطور البيزنطى غير إمداد العمال الأتراك بالأغذية

حتى يسترضى قلب السلطان الغاضب الثائر . ثم حاول بعد ذلك أن يلجأ إلى مهاجمة هؤلاء العمال وطردهم وتدمير ما أنشأوه ، ولكن قوات السلطان كانت تقضى على هذه المحاولات بالقوة . ولا تزال آثار التحصينات العثمانية باقية إلى الوقت الحاضر كمظهر من مظاهر النشاط الهائل الذى عرفه التاريخ عن ذلك السلطان القاهر .

وكانت النتيجة الحتمية لبناء ذلك الحصن ولمقاومة البيزنطيين أن أعلن السلطان الحرب رسمياً على الامبراطور البيزنطى على أساس اعتداء البيزنطى على جنوده وعماله .

لقد عمل إنشاء ذلك الحصن على إدخال الذعر والخوف فى قلوب البيزنطيين سكان المدينة و بقية رعايا الدولة . فلقد ترك السلطان فى ذلك الحصن حامية قوية من جنود مختارين بقيادة فيروز أغا ، وأمره بإيقاف جميع السفن التى تمر ببوغاز البوسفور ، وأن يفرض عليها أتاوة ، هى ضريبة المرور ، وجهز الحصن بالمدافع القوية التى تجعل إرادته وأوامره محترمة .

وأخذت حامية ذلك الحصن تعتدى بانتظام على الجهات المجاورة ، وفهم الامبراطور البيزنطى أخيراً أن محاولته المحافظة على السلام بأى ثمن لن تفيده شيئاً ، فلا شىء يرضى العثمانيين غير القضاء على ملكه

وغير الاستيلاء على مدينته ، ولذا عقد العزم على الموت فى عاصمته هو و رعاياه فأغلق أبواب القسطنطينية و بعث إلى السلطان محمد الثانى بما عزم عليه ، ففى ٦ أبريل كتب قسطنطين رسالة للسلطان العثمانى يقول فيها :

« لما كان من الجلى أنك تريد الحرب أكثر من السلام ، ولما كنتُ غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصى واستعدادى لأن أكون تابعاً لك ، لذا ، فالأمر لله ، وسأحول وجهى إلى الله ، فإذا كانت إرادته تقضى بأن تصبح هذه المدينة مدينتك ، فلا مردَّ لقضاء الله وقدره ، وأما إذا ألهمك الرغبة فى السلام ، فسأكون سعيداً ما بقيت ، ومع ذلك فإنى أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معى ، وسأغلق أبواب هذه المدينة وأدافع عن شعبي إلى آخر قطرة من دمى ... »

هذه كانت روح مدينة القسطنطينية أو الفريق الأكبر فيها حين قررت عدم الخضوع ، وصممت على الدفاع إلى النهاية . أقفل الامبراطور أبواب المدينة وقبض على كل الأتراك الموجودين فى داخلها ، فأرسل إليه السلطان محمد الثانى بإعلان الحرب ، ويروى خصوم السلطان المسيحيون المعاصرون له أن السلطان أمر بقطع رؤوس مبعوثى الامبراطور البيزنطى ، وهذه الرواية تحتاج إلى دليل ، وظهر السلطان

بعد ذلك بجيش يبلغ خمسين ألفاً بجوار الأسوار ، ثم رجع إلى أدرنه فلم يقم الأغريق بأية حركة معادية . كان غرض السلطان من هذه الزيارة القصيرة التى دامت ثلاثة أيام الاستطلاع ، وبحث موقع القسطنطينية ، ودراسة قوة الأسوار والأبراج .

رجع السلطان إلى أدرنه حيث أتم استعداداته ، وعمل على منع أخوى الامبراطور فى شبه الجزيرة الأغريقية من مده بالمساعدة وذلك بأن أرسل جيشاً قوياً إلى المورە بقيادة طورخان فاكتسح بلاد المورە من أقصاها إلى أقصاها ، وتمكن من وقف أى إمدادات مقصدها المدينة المحاصرة .

وكان لبناء ذلك الحصن على ضفة البسفور أثر كبير فى حركة المرور بالبوسفور ، فلما حاولت بعض السفن الآتية من البحر الأسود ومقصدها القسطنطينية ، لما حاولت هذه السفن المحملة بمواد التموين المرور ولم تأبه لأوامر الحصون العثمانية دمر بعضها وقتل الكثير من رجالها . وبذلك ثبط العثمانيون من عزم أصحاب السفن التجارية ، وشلوا حركة النقل .

ولقد جمع السلطان محمد الثانى فى قصره فى أدرنه قواد جيشه ، ورسم لهم خطته ، وذكرهم بمجد أسلافه وبانتصاراتهم الباهرة ، وبيّن لهم أن قوة الامبراطورية البيزنطية قد ضعفت واضمحلت ، وأنه لم يبق أمامهم

سوى عقبة واحدة فى سبيل فناء هذه الامبراطورية ، فيجب الاستيلاء على مدينة القسطنطينية بأى ثمن ، وأن الظروف السياسية والحربية مواتية ، ولدى الأتراك القوة الكافية لتحطيم أى مقاومة ، وأنه يجب الإسراع بإنجاز هذه المهمة قبل أن تستعد أوربا للقيام بنجدة هذه المدينة ، وقبل أن تصلها الإمدادات والمؤن التى قد تطيل أمد الحصار ولذا لا بد من بدأ هذه الحرب والسير فيها إلى أن ينزل الله نصره .

ونفذ السلطان محمد الثانى مشروعه بقوة وعزم منقطعى النظير ، كان قادراً بطلا ذا جراءة ، وشكيما منظما حديدى الإرادة ، وتم استيلاؤه على كل الحصون التى لا زالت باقية فى تراقيا حتى يحمى مؤخرة جيشه ، وكذلك احتل كل المدن الواقعة على البحر الأسود وبحر مرمره ، واكتسحت جنوده ضواحى العاصمة ، فبلغ الذعر فيها منتهاه ، وعم القلق ، وتناقل الناس الأقاصيص والخرافات والأساطير ، وكثرت التنبؤات عن مصير المدينة المنكودة الحظ ، وتزايدت النذر باندثار أعظم مدينة مسيحية ، وأحس المسيحيون بهزات أرضية عنيفة ، وفى السماء كثر الرعد والبرق ، وهطلت الأمطار المتدفقة ، وخيل للقوم أن نجوماً جديدة فى السماء قد ظهرت ، لقد عمت الهستريا فى الواقع عقول سكان المدينة المحاصرة ، فكثرت أقاويلهم ، وتبلبلت ألسنتهم

وهلعت نفوسهم ، و بلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنون .

ولكنه فى نفس ذلك الوقت العصيب كان الامبراطور الشجاع قسطنطين وزمرة من الشجعان من أهل المدينة قد أخذوا فى تحصين المدينة ، و إعداد وسائل الدفاع بكل ما استطاعوا من قوة حسبما سمحت لهم الظروف ، وكان أول واجب هو إصلاح الأسوار المتهدمة التى أبلاها الدهر ، ووقفت أمام إغارات الغازين المتكررة . واستعملت لذلك أحجار القبور وكثير من الآثار القديمة والمنازل ، وجمعت الذخائر والأسلحة بكل سرعة ، وكذا الغلال والزيت ، وجمعت الأموال التى يمكن الحصول عليها ، و بعثت البعثات الصارخة إلى أوربا ، تطلب القوت والنجدة وتبكى حظ المسيحية فى كل مكان فيه للمسيحية سلطان وقوة ، واستمر ذلك طوال ذلك الشتاء الكئيب المكفهر ، وكان معظم سكان المدينة قد فقد الأمل من وصول أى نجدة ، و إن كان المسيحيون فى أوربا قد ظلت لديهم بعض الآمال فى حدوث معجزة تنقذ حصن المسيحية الشرقى .

وثابر السلطان على تجهيز استعداداته للهجوم وتنظيم وسائله ، فجمع جيشاً عظيما ربما بلغ ربع المليون أو أكثر كما يرى هامر ، وأنشأ أسطولا ضخما ، وشحن حصونه بالأسلحة والذخيرة للقضاء على هذه

المدينة البائسة . ومن شهر فبراير سنة ١٤٥٣ بدأ بإرسال مدافعه وأخذ فى الاسراع بإنشاء السفن . وقامت بعض السفن الأغريقية بالهجوم على الشواطئ التركية الإسلامية ، فأخذت من قدرت عليه ، وقتلت من قتلت ، وخربت ما خربت ، وباعت فى الأسواق من باعت ، فلما علم السلطان بذلك استشاط غضباً ، وأقسم لينتقمن من سكان المدينة شر انتقام .

وكان الامبراطور قد علم بهذه الاستعدادات العظيمة ، كما يقال ، عن طريق خليل باشا وزير السلطان ، الذى يرى بعض المعاصرين أنه لم يكن مخلصاً للسلطان بدليل اتصاله بقسطنطين وإخباره بما يعتزم عليه السلطان محمد الثانى من إيقاد نار الحرب والاستيلاء على المدينة . ولكننا لا ندرى إذا كان خليل باشا قد كشف للامبراطور البيزنطى عن أسرار مولاه أو عن خططه الحربية حتى تستطيع اتهامه بالخيانة . وعلى أى حال لقد ظل السلطان يثق به ثقة كبيرة طوال وقت الحصار وان لم يأخذ برأيه فى فك الحصار عن المدينة . ولكن حين تجمعت له الأدلة عن اتصاله بالأعداء وذلك بعد سقوط القسطنطينية أمر بضرب عنقه .

ولقد استمرت استعدادات كل من الأتراك والبيزنطيين طول

وقت الشتاء ، وجاءت إلى القسطنطينية بعض الإمدادات الضعيفة مثل سفينتين بندقيتين استطاعتا بصعوبة أن تنفذا من البوسفور وتلقيا مراسيهما فى القرن الذهبى .

وجاء الكردينال ايزيدور مبعوث البابا بمائتى مقاتل لنجدة المدينة ولإتمام توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وتبعته ثمان سفن من كريت تحمل النبيذ للمحاصرين ، وكثرت اجتماعات المجالس واللجان فى القسطنطينية وزاد طلب النجدات ، وبعثت البعثات إلى المجر تطلب العون من بطلها هو ينادى بألا يترك إخوانه البيزنطيين يسقطون صرعى فى أيدى الأتراك العثمانيين . ولكن هذه الاستغاثات لم تجد استجابة ولم تلق غير التأييد اللفظى

ثم جاء جون جوستينيانى الجنوى على سفينة محملة بالمؤن والذخائر ، ومعها أخرى وخمسمائة من رجاله فكانت جملة من معه سبعمائة . ولقد استقبله الامبراطور استقبالا عظيما ، وعينه قائداً لقوات البرية .

وسيظهر ذلك المغامر الكونديتيرى الحقيقى مهارة وشجاعة ممتازين ، كما سيبدى نشاطاً بالغاً الحد ، ولقد أعجب السلطان بشجاعته كما يقول هامر وحاول الاتصال به . لقد قدم متطوعاً للدفاع عن حصن المسيحية الشرقى ، وكان هو ورجاله نخبة المدافعين عن المدينة الخالدة وخيرتهم .

وأخذ جون جوستينيانى على عاتقه من وقت تعيينه أمر تنظيم الدفاع عن القسطنطينية . فنظم وضع مدافعه الصغيرة على الأسوار فى نقط معينة ، وقسم المدافعين عن القسطنطينية حسب شعوبهم وأجناسهم وخصص لكل واجباته ، وقام بمهمة ليست بالبسيطة وهى تدريب هؤلاء الرهبان والمدنيين الذين يجهلون فن الحرب كلية ، وليس لديهم من وسائلها إلا الحماس لها والرغبة فى النضال ضد المسلمين لإنقاذ مدينتهم الجميلة ، والتضحية بأرواحهم فداءاً لها .

وعمقت الخنادق الموجودة فى الناحية الشرقية ، وكان الامبراطور يشجع هؤلاء المجندين ، ويقوى من ثقتهم بأنفسهم ويبين لهم أن العذراء لن تترك مدينة المسيحية الخالدة لتسقط فى أيدى المسلمين الطامعين .

وخصص الامبراطور لجون جستنيانى الجنوى وأتباعه مهمة الدفاع عن النقط الخطرة والأبواب المهمة . وأجمعت كلمة الجميع أغريق وبنادقة وجنويين وكتلان كاثوليك وأرثوذكس على ضرورة الدفاع عن مدينتهم إلى آخر رمق من حياتهم ، وإنقاذ أكبر حصن فى أوربا من أن يقع فى أيدى الأسيويين الغازين .

وقرر الامبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبى أمام السفن الفاتحة ، تبدأ من طرف المدينة الشمالى الشرقى ، وتنتهى عند ضاحية

غلطه ، وهي مدينة جنوية مستقلة ، وترك لهؤلاء الجنويين أمر حمايتها عند طرفها الشمالي . وهذه السلسلة هي التي وقفت أمام الأسطول أو الأرماد التركي وعملت على حماية السفن التي تجمعت وراءها ، لقد لعبت هذه السلسلة دوراً هاماً في الدفاع عن المدينة المحصورة .

وفي نهاية شهر مارس كانت استعدادات السلطان محمد الثاني لفتح القسطنطينية قد تمت ، وكان قد دمر كل القرى المجاورة لها ، فلم تعد المدينة الكبيرة تستطيع الاتصال بالبلاد المجاورة لها ، أو تستفيد منها وكان عليها أن تعتمد الاعتماد كله على المؤن والذخائر الموجودة بداخلها ، وأن تنتظر ما قد يستطيع أن يصل إليها من إمدادات من الخارج ، وكان وصول الامدادات صعباً ، إن لم يكن مستحيلا كما سنرى .

تمت استعدادات السلطان محمد الثاني للحصار ، ففي أدرنه عاصمة الأوربية ومعسكر الأتراك العظيم تجمعت الجنود العثمانية الأسيوية والأوربية الفرسان والمشاة ، النظامية وغير النظامية ، وبين هذه الجنود الغير النظامية والباشبوزق عدد كبير من المسيحيين الذين لا همَّ لهم غير القتال والقتل والغنيمة والسلب والنهب ، وهم لايخضعون في سلوكهم لقانون ولا نظام ولا عرف ولا دين ولا إنسانية وإنما يتبعون غرائزهم البهيمية قبل كل شيء والأوامر التي يصدرها قائدهم إليهم .

كان حماس الجيش العثمانى للقتال عظيما ، وكان عدده كبيراً ، ويعتقد رجاله أنهم يؤدون مهمة سامية فى الحياة ، ويقومون بتنفيذ مشروع مقدس ، ويعملون على رضا الرب ، ويبتغون المثوبة من الله ، وينتظرون النصر ، وينتقمون للمسلمين . كان بين هذا الجيش عدد كبير من الملات (القضاة) والمشايخ والعلماء والدراويش يقوون روح الجهاد والحماس فى الجنود ، وكان السلطان قد استصحبهم على عمد لا لاستغلالهم فقط فى سبيل إنهاض القوى المعنوية للجنود ، ولكن تبركا بهم ، وتيمناً بصحبتهم واحتراماً لهم وإكبارا

كانت الحركة دائمة والنشاط عظيما فى كل من مدينتى أدرنه والقسطنطينية ، لم تكن تغمض لمحمد الثانى أو لقسطنطين عين ،

لقد كانت استعدادات الأتراك الهائلة التى لم تخف على البيزنطيين عاملا على نشر الذعر والخوف فى المدينة المسيحية ، وخاصة ما تناقلته الأخبار عن قوة مدفعية السلطان العثمانى ومدى تدميرها العنيف . كان الأتراك أول من استعمل الأسلحة الحديثة ، وأحسن استخدامها ولم يكن أحد من السلاطين يهتم بالمدفعية مثلما كان يهتم بها السلطان محمد الثانى . لقد علم سكان مدينة القسطنطينية أن الأتراك يحاولون صنع مدفع عظيم لم يسبق له مثيل ، وأن السلطان يستخدم لذلك صانعاً

مجريا إسمه أوربان ، وكان ذلك الرجل قد عرض خدماته قبلا على الأمبراطور البيزنطى ، فلم يمنحه المكافأة التى كان ينتظرها ، فأسرع إلى الأتراك يعرض عليهم اختراعه . ما كان البيزنطيون يستطيعون الإستفادة من اختراع ذلك الرجل ، فحالة أسوار مدينتهم ما كانت تسمح بوضع مدفع كبير عليها . على أى حال استقبل محمد الثانى ذلك الرجل استقبالا حسنا ، وأغدق عليه الأموال والخيرات وكل مايصبو إليه من شرف ، وعرف السلطان كيف يستغله أكبر استغلال ، وسهل له كل الوسائل لاتمام مخترعه . واستخدم السلطان المدفعية فى ذلك الوقت على نطاق لم تعرفه من قبل .

* * *

حصار القسطنطينية (١)

وفى أوائل إبريل ، فى اليوم الخامس منه ، ظهر الجيش العثمانى أمام أسوار مدينة القسطنطينية ، بين دعاء العلماء والأشراف من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . ظهر الجيش العثمانى منظما تنظيما

(١) يخالف المؤلف شلومبرجر صاحب كتاب فتح القسطنطينية فى فكرته عن قسوة السلطان وعدم إرتباطه بالوعود .
ولقد أخطأ شلومبرجر فى أسماء القواد العثمانيين الذين اشتركوا فى الحرب .

رائعا على نسق منقطع النظير فى ذلك الوقت . وبدت الفرق بجانب الفرق فى أعلامها وطبولها وأبواقها وموسيقاها وخيلها ومدافعها المكونة من أربع عشرة بطارية ، اثنين وستين مدفعا وكاول الحمل الكثيرة العدد .

ونصب السلطان سرادقه محاطاً بالخنادق على الشاطىء الأيسر لوادى ليكوس أمام الباب المشهور بباب القديس رومانوس . وسلطت على ذلك الباب المدافع القوية البعيدة المدى . ثم اتجه السلطان نحو القبلة ، وصلى ركعتين ، وصلى الجيش كله ، وبدأ الحصار الفعلى .

وانطلق العلماء وأهل الدين إلى الفرق العسكرية المختلفة يحثونها على القتال ، واحتل العثمانيون الخط الممتد من بحر مرمره إلى القرن الذهبى محيطين بأسوار المدينة ، ولم يهتم السلطان بإعداد جنوده وتموينهم بالأسلحة والمدافع العظيمة والغذاء فحسب ، بل اهتم اهتماماً زائداً بتنسيق عمل القوات ، ووضع الخطط المنظمة التى يتعاون فيها الفرسان مع المشاة مع المدفعية فى الحصار والهجوم .

ولقد وضع السلطان محمد الثانى الفرق الأناضولية ، وهى أكثر الفرق عدداً بحيث تعسكر عن يمينه إلى بحر مرمره . وإلى شمال هذه الفرق وعن يساره عسكرت الفرق الأوروبية إلى القرن الذهبى . والتف

الحرس السلطانى المكون من نخبة الجنود وهم الانكشارية ، خمسة عشر ألفاً حول السلطان فى الوسط ، وكان عليهم تعضيد الهجوم فى جهة باب القديس رومانوس ، وهى أضعف نقطة فى الدفاع .

وشاهد سكان القسطنطينية ذلك المنظر المخيف من أعلى أسوار مدينتهم . وفى الوقت نفسه جمع السلطان أسطولا عظيما هو أول أسطول تركى بالمعنى الصحيح فى مدينة جاليبولى وهى قاعدة العثمانيين البحرية فى ذلك الوقت ، وأمر السلطان ذلك الأسطول فعبر بحر مرمرة إلى البوسفور حيث ألقى مراسيه هناك ، حيث انضمت إليه بعض السفن العثمانية من البحر الأسود ، فأضاف منظره إلى منظر الجيوش المحاصرة روعه على روعه ، وقوة على قوة ، وعمل على زيادة الذعر فى المدينة المحاصرة.

واقترب العثمانيون من الأسوار ، وعندئذ طلب السلطان من الامبراطور أن يسلم المدينة للأتراك ويتعهد السلطان بأن يحترم حياة سكانها وممتلكاتها ، وطلب محمد من قسطنطين ذلك الطلب حقناً للدماء ورحمة بالسكان ، ولكن الامبراطور قسطنطين رفض ذلك الطلب رفضاً باتاً ، فلم يكن للسلطان مفر من الحرب .

درس السلطان محمد الثانى حالة الأسوار وقوتها من القرن الذهبى إلى بحر مرمره بنفسه لكى يكشف عن النقط الضعيفة ، ثم استعرض

جنوده وقوى من روحهم المعنوى ووعدهم بالنصر ، ثم قسم القيادة فجعل زغنوس باشا وأصله ألبانى على رأس الجيش غير النظامى الذى يعسكر على أعالى بيره ، وعليه مراقبة سكان غلطة الجنويين وعليه أن يمنعهم بالقوة إذا استلزم الأمر من مد يد المساعدة إلى المدينة المحاصرة .

وجعل صاريجه باشا على الميسرة وهو بايلربای (حاكم) روملى وواجبه الهجوم على المدينة من أعالى القرن الذهبى ، وجعل الإشراف على المدفعية العثمانية وجعل على جنوده الأسيويين أو الأناضولية اسحق باشا بايلربای الأناضول هو ومحمود باشا وكل منهما عظيم الامتياز كبير التجربة فى أمور الحرب ، وجعل السلطان لنفسه هو وخليل باشا قيادة الوسط وكانت المدفعية العثمانية فى ذلك الوقت أكبر مدفعية عرفها العالم .

وجعل السلطان مهمة الأسطول تنحصر فى منع وصول التموين الغذائى والحربى عن طريق البحر إلى المدينة ، ومهاجمة السفن المسيحية التى تحرس السلسلة التى تغلق القرن الذهبى ، ومحاولة اقتحام القرن الذهبى والقضاء على السفن الراسية فيه ، والتعاون مع الجيش البرى فى حصار مدينة القسطنطينية . كان ذلك الأسطول مكوناً من حوالى ثلاثمائة سفينة هى بطبيعة الحال أصغر بكثير وأقل قوة من سفن أعدائه وإن كانت أكثر منها عدداً .

لقد هوجمت القسطنطينية من كل ناحية ماعدا ناحية القرن الذهبي فلقد كانت محمية بالسلسلة وبالأسطول الراسى فى الميناء .

كانت أسوار القسطنطينية بالرغم من الخراب الذى لحق بعض أجزائها منيعة ، استطاعت أن تدفع عنها الأعداء فى كل العصور ، فهذا السور العظيم الممتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمره من عجائب الدنيا حقيقة فى ذلك الوقت ، تعاهده الأباطرة فى مختلف العصور بالإصلاح والترميم أمام مرور الزمن وجحافل الأعداء العديدين . وهو لا يزال إلى الآن مظهراً من مظاهر عظمة هذه المدينة الخالدة بأبراجه ومرتفعاته ومنخفضاته التى تنحنى حسب الأودية والتلال مستندة إلى سماء زرقاء صافية ، وفى كل زاوية من ذلك السور العظيم يقوم حصن قوى ، ولكن ذلك السور كان فى حالة سيئة نوعا ، ويحتاج إلى إصلاح وترميم فى الوقت الذى حوصرت فيه هذه المدينة . وكما تقول المصادر الافرنجية المعاصرة لم يقم المهندسان اللذان كلفا بالاصلاح والتعمير بمهمتهما كما تقضى النزاهة والواجب ، وأما السور الداخلى فظل على حالته من الخراب لم يرمم الترميم الكافى . لقد اعتمد سكان المدينة كله على السور الخارجى بحصونه وأبراجه القوية .

وأمام الجيش العثمانى العظيم ومدفعيته الهائلة ، وأمام ذلك الأسطول

الكثير العدد ، وقف عند باب القديس رومانوس ، أخطر نقطة فى السور ، ثمانية آلاف من المدافعين كما تقول المصادر الافرنجية ، ولكن يجب ألا ننسى أن عدداً كبيراً من سكان المدينة قد جند للدفاع عنها أو لمساعدة الدفاع ونقل أدواته بل وترميم الأجزاء التى تخربها المدافع .

ولا يجب أن ننسى أيضاً أن هؤلاء المدافعين كانوا يدافعون من وراء أسوار مدينة أقل ما يقال فيها أنها من أمنع مدن العالم فى ذلك الوقت ، ولا ريب فى أن حامية صغيرة منظمة مجهزة بوسائل الدفاع الحديث تستطيع القيام بمهة الدفاع خير قيام ، وتستطيع رد الغازين على أعقابهم خاسرين .

كانت أهم فرقة فى المدافعين عن المدينة العظيمة فرقة الأجانب وهى مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل من الطراز الأول ، وهى تتألف من جنويين و بنادقة وعناصر من كريد وروميه وأسبانيا و بعض المرتزقة من الأتراك أنفسهم . وهنا نسأل هل جاء المدينة مدد حقيقى من الدولتين اللتين يهمهما مصير القسطنطينية ، جمهوريتى البندقية وجنوة . لم تقدم الدولتان مساعدة حقيقية للمدينة فى محنتها العظيمة . وهـذا لا يمنع أن أفراداً من هاتين الجمهوريتين قد قبلوا عن طيب خاطر التطوع للدفاع

عن هذه المدينة المسيحية الكبيرة ، و بذل دمائهم فى سبيلها . ربما كان دافع هؤلاء دينياً الحماس للكاثوليكية ، وربما كان المصالح المادية والتجارية ، وربما كان حب المغامرة ومقابلة المخاطر الجسيمة وركوب الصعب . وربما كان هذه الدوافع كلها مجتمعة .

بالرغم من ذلك وقفت مستعمرة غلطة الجنوبية ، وجارة القسطنطينية من ناحية الشمال ، وقفت موقف الحياد التام حرصاً على رضا السلطان القوى ، وتمسكت به ، فلم تساعد أحداً من الفريقين ، ولم تنصر أحدهما على الآخر .

ونندهش للمساعدة الضئيلة التى قدمها الغرب ، فهل أصبح مصير قاعدة المسيحية فى الشرق لايهم الغرب ؟ لم تكن مسألة اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية محبوبة حباً جماً . ولذا قاتل أفراد ذلك الفريق القليل المتطوع وحدهم بقوة وشجاعة وحماس إلى النهاية ، إلى أن بذلوا دماءهم فداء للمدينة ، ولكن ذكراهم لم تنس ، ولم يندثر تاريخهم ، فلقد أرخ لهم أحد زملائهم ومواطنيهم ممن قاتل وضحى معهم وهو باربرو ، وبجانب هذا الفريق ألفان ممن عسكروا فى السفن الراسية فى القرن الذهبى والسفن التى كانت بالدفاع عن الميناء .

لم تجد أوربا العظيمة غير ثمانية آلاف من الجنود المدربين حقيقة

لدفع أكبر خطر عرفه العالم على مدينتها العظمى بينهم عدد قليل لا يزيد عن الألف من الجنود المدرعين .

وعسكر الأمبراطور ، وحشد جنوده فى ناحية وادى ليكوس ، وهى المنطقة الضعيفة فى الاسوار عند باب القديس رومانوس ، وعقد المجالس الحربية لتنظيم أمور الدفاع عن المدينة ، وعهد إلى جون جوستنيانى الدفاع عن هذه الناحية ، ولم يكن لدى المدافعين مدفعية قوية ، وحتى مدافعهم الصغيرة لم يستطيعوا نصبها على الاسوار التى أصبحت فى حالة رثة ، فهى لا تحتمل المدافع ولا طلقاتها .

كان تسليح المحاصرين بصفة عامة سيئاً ، فلم يكن لديهم السلاح الكافى ولا السلاح الجيد ، ولكن كانت عندهم النفوس القوية والعزائم الحديدية قد جعلوا نذراً قتال الأتراك حتى الممات .

وفى هذه الأثناء كان بلطه أوغلى قائد الأسطول العثمانى قد نفذ أوامر سيده بدقة وراقب بأسطوله حركات الأعداء عند مدخل القرن الذهبى ، وبعث جزءاً من أسطوله لمهاجمة الجزر القريبة فى بحر مرمرة فأحرق بعضها وباع سكانها الذين نجوا من عذاب الحريق .

وتمكن العثمانيون من نصب مدافعهم الضخمة القوية أمام الأبراج

وأخذوا فى ضرب المدينة ودق أسوارها بقنابل زنتها مائتا رطل وساروا فى عملهم بنشاط وحماس لانظير لهما .

وكان على المحاصرين أن يراقبوا بحزن عميق وقلق ضرب مدينتهم الجميلة ، وهذه القنابل الكبيرة تنهال على أسوارها فتحدث الخراب والدمار ، وتحدث رجة وهزات عنيفة ، كما كان على سكان المدينة أن يراقبوا حركات الأسطول العثمانى ، وأخذوا يدأبون على إصلاح الأسوار وتعمير مادمر منها من جديد ، وكان الجهد الذى يبذلونه قاتلا ، لايستطاع معه الصبر مدة طويلة ، وعانوا من الذعر والفزع والتعب مالم يعانيه سكان مدينة أوربية فى العصور الوسطى .

وكانت هناك بعض مناوشات فى أول الأمر من ناحية الانكشارية الذين كانوا يسخرون من الموت كما يقول معاصروهم من الافرنج ، فلقد كانوا يغشون ساحة الوغى كالأسود الكاسرة التى لا تفكر فى شىء ، وإذا سقط وحدان منهم حملهم الأخرون على ظهورهم متعرضين للموت متجشمين الخطر مسارعين إلى الهجوم فاذا قتلوا حملهم آخرون من رملائهم بحيث لايبقى منهم أحد ثاوياً بجانب الأسوار .

ولذا لم يستطع المحاصرون النوم لحظة من الوقت أمام الضرب.

المتواصل وأمام خطر الهجوم الذى يهدد من لحظة إلى أخرى ، وأمام الهجوم البحرى الذى قد يقتحم القرن الذهبي .

وفى أثناء الحصار جاءت مكاتبات من هونيادى المجرى يعلن فيها إلى أهل القسطنطينيه أنه قد أعاد أمور الدولة إلى الملك فلاديسلاف وأنه أصبح من أجل ذلك فى حل من اتفاقه مع السلطان محمد الثانى ، ربما ظهر ذلك الموقف الجديد فى مصلحة البيزنطيين فقد يهدد هونيادى ومن معه من المجر حدود بلاد السلطان من الشمال الغربى مما قد يدعو السلطان إلى رفع الحصار عن المدينة فترة من الوقت تستطيع معها التنفس . ولقد أطلع السلطان مبعوثى المجر على مدفعيته العظيمة وانصرف المبعوثون سالمين إلى بلادهم ، وانتهى الأمر عند هذا الحد .

وبعد مرور أسبوع من الحصار كان التلف بجدران الأسوار قد وصل إلى درجة ظن فيها أن الترك سيقومون بهجوم لاقتحام أسوار المدينة عنوة . ولذا فى ١٨ ابريل بدأ هجوم عنيف على الأسوار هلك فيه جم غفير من الاتراك . وإن كانوا بأصوات طبولهم وأبواقهم وتكبيراتهم يظهرون أكثر عددا مما هم . وبلغ الأمر حداً أن الامبراطور البيزنطى كاد يهلك من الجزع ، ولم يجد غير الدموع يطفى بها لهيب جزعه على مدينته وعاصمته الكريمة . لم يكن المدافعون مستعدين تماما

لهذا الهجوم غير المنتظر ، ولكن كما يقول باربرو مؤرخ فتح هذه المدينة « لم يسمح الله بدخول الاعداء المدينة هذه المرة » وانتهى الهجوم دون نتيجة بعد أربع ساعات فى نضال مستمر عنيف ومحاولات لتسلق الاسوار ونقبها .

وكان هذا الفشل المؤقت الذى لحق محاولة الاتراك داعيا إلى تقوية نفوس البيزنطيين وحلفائهم من الاجانب ، وزيادة ثقتهم بأنفسهم وتضاعف مجهوداتهم لاصلاح العطب الذى نال الاسوار ، وشكر الامبراطور قسطنطين وقساوسته الله على ذلك النجاح .

وقامت مع هذه المحاولة محاولة من الاسطول العثمانى لاقتحام القرن الذهبى ، وكان الأسطول مجهزاً بكل وسائل الحرب المعروفة فى ذلك الوقت ، ويحمل عدداً كبيراً من المحاربين ويسير معظم سفنه بالمجاذيف ، تقدمت السفن العثمانية بعددها ورجالها لمهاجمة السفن التى تحمى مدخل القرن الذهبى ، ولكى تقطع السلسلة ومن القرن الذهبى تحاصر المدينة من ناصيتها الغير محمية .

ويظهر أن رجال البحرية العثمانية لم تكن لهم الدراية الكافية ولا العدة اللازمة للحرب البحرية ، وأصابهم كذلك بعض الزهو والغرور

بكثرة عدد سفنهم ، ولم يقدروا تماما مالعدوهم من قوة وخبرة ومعرفة بأمور الحرب البحرية . هاجمت السفن العثمانية أعداءها ، وألقت بأحجارها ورمت بأسهمها النارية وطرحت بقوارير النفط ، نيرانها ومشاعلها ، اقتربت من سفن الخصوم تحاول إحراقها وتدميرها ، حاولت قطع حبال سفن الأعداء ومراسيها ، وأضاء الجو بالنور ، بالمشاعل فكان منظرا باهراً .

وأما سفن المسيحين فلقد أظهرت جلداً وصبرا كبيرين ، وكانت أكبر وأضخم وأعلى من السفن العثمانية ، فكانت تستطيع إصابة سفن العثمانيين ، ولا تستطيع سفن العثمانيين إصابتها بسهولة ، وكانت مستعدة بعد ذلك للقتال تمام الاستعداد ، ونظمت مواقفها بحيث تجعل الدفاع سهلا . ودفعت أحجار الترك بأحجارها وأسهمهم بأسهمها ونيرانهم بالأواني المعدة لصب الماء . حاول الترك اقتحام السلسلة ، وحاول المسيحيون منعهم ونجحوا في ذلك ، واضطر الأسطول التركي إلى الانسحاب يتبعه صياح الأعداء وتهليلهم بفوزهم ونصرهم .

ولكن عزيمة السلطان محمد الثانى لم تكن تعرف الكلل أو اليأس فحاول اختراع وسيلة لضرب أسطول الأعداء من البر بمدافعه الكبيرة

وإغراقه فى مراسيه ، ولكن هذه الخطة لم تكن ناجحة وإن كانت أحرزت بعض النجاح ، فلجأ إلى غيرها .

ثم حدث فى ٢٠ إبريل أن أقبلت ثلاث سفن جنوية كبيرة وأربعة أخرى تحمل جنودا ومؤنا وبضائع وسلاحا ، وهى آتية من الجنوب ، ورآى الأتراك هذه السفن الثلاث تقترب من المدينة المحاصرة . عند ذلك أمر السلطان قائدة البحرى بمهاجمة هذه السفن مباشرة ومنعها من الوصول إلى المدينة المحاصرة ، والاستيلاد عليها أو تدميرها ، وختم السلطان أمره إلى قائده « إذا لم تنجح فى ذلك فلا ترجع لى حيا » .

وكان عدد السفن العثمانية التى أمرت بمهاجمة السفن الأربع الجنوية مائة وخمسون من أحجام مختلفة ، فكيف استطاعت سفن الأعداء القليلة العدد الهرب أمام ذلك الأسطول الضخم — ؟ تم ذلك بمعجزة من المعجزات ما كانت منتظرة .

لقد أصاب العثمانيين الغرور هذه المرة بشكل أوضح من المرة السابقة ، فعددهم يتفوق تفوقا حاسماً ، وكانوا واثقين تماماً من الانتصار وبلوغ مرادهم . ولقد دقت طبولهم ومزاميرهم ، وعلت أصواتهم وتكبيراتهم وكان سكان المدينة يرون من على أسوارهم وبقلق متزايد السفن التى

أتت لتقضى على سفن أصدقائهم . لقد ظن باطه أوغلى أن قوته ستقضى على الاعداء بسهولة .

طلب الأسطول التركى من هذه السفن التسليم وإلا يصيبها الدمار . ولكن السفن المسيحية رفضت بإباء وشمم ، وقامت معركة دامية زاد فيها الصخب وعم الهدير وكثرت اللعنات من الطرفين ، وسقط القتلى والجرحى من الأتراك ، كانت الريح فى أول الأمر تساعد السفن الجنوية ، ثم وقفت الريح فجأة فتحول الموقف لصالح الأتراك وقام قتال عنيف بين السفن .

ولكن الايطاليين كانوا مدرعين بالصلب وسفنهم متفوقة فى الحجم والقوة ، ولذا ظل الأتراك بالرغم من وفرة عدد سفنهم فى مركز ضعيف وكان سكان المدينة يشاهدون الموقعة ، ولا يستطيعون لمن جاؤا لمساعدتهم نصرا ، ولكنهم كانوا يدعون لهم بالفوز ويرجون لهم الملائكة والقديسين بالعون ، وكان السلطان هو الاخر ينظر إلى الموقعة من الساحل ، وينتظر من حين لآخر القضاء على السفن المسيحية .

ظلت الموقعة مدة ساعات غير معروفة النتيجة ، وهاجمت السفن التركية بقوات متجددة تحفزها أوامر السلطان وهتاف الجيوش العثمانية

على الساحل ، وكادت تقضي فعلا على سفن الأعداء ، لولا أن عادت الريح فتحركت فى صالح الأسطول المسيحى فأبعدت سفن المحصورين عن بعضهما ، فسفن المسيحيين سفن شراعية ، بينما معظم السفن التركية تعتمد فى الغالب على التجديف ، ولذا انتهت الموقعة رغم أنف الأتراك فلقد بعدت سفن جنوة عن الأسطول التركى ، وتمكنت من دخول الميناء آمنة مطمئنة ، فكانت هذه معجزة فى مصلحة أهل القسطنطينية الذين أذهلهم الفرح لنجاة إخوانهم من هلاك محقق محيط ، ثم لوصول المدد إليهم ، وظنت مدينة القسطنطينية لحظة من الزمن أنها قد أنقذت .

وجاءت بعد ذلك مقابلة باطه أوغلى للسلطان الثائر الغاضب وكان أمير البحر التركى قد فقد إحدى عينيه فى الموقعة ، وبذل قصارى جهده ، ولكن الحظ خانه .

ولكن غضب السلطان فى ذلك الوقت لم يكن يعرف حدا ، فعاقبه أشد عقاب فأمر بجلده وانتزاع أملاكه ونزعه من منصبه .

وليكن مجىء هذه السفن المحملة بالمؤن جعل أهل القسطنطينية يظنون أن ذلك مقدمة لمدد آخر آت فى الطريق أو على وشك المجىء ، ولكن هذه الآمال لم تحقق فلم يظهر أى أسطول آخر .

هذه الهزيمة التي لحقت بالأسطول العثماني زادت في تصميم السلطان محمد الثاني وعزمه على الانتقام ، فزاد ضرب المدافع للمدينة إلى درجة أصبح دويها يصم الآذان ، وإلى حد أن أحدث تلفا كبيراً بالأسوار وخاصة من ناحية باب القديس رومانوس . وفي هذه الأثناء كان السلطان يجري تجربة على جانب عظيم من الأهمية ، وكان أهل القسطنطينية قد ظنوا أن السلطان سيقوم بهجوم عام على مدينتهم ، ولكن التجربة التي كان يقوم بها محمد الثاني سيكون لها أثر كبير في سقوط المدينة الحصينة .

وإذا كانت محاولة الاسطول العثماني اقتحام مدخل القرن الذهبي لم تنجح فلا بد في نظر السلطان من تجربة يستطيع بها تحاشي الاصطدام بالسفن الموجودة في فم الميناء . . ففكر في نقل جانب كبير من أسطوله عن طريق البر من وراء غلطه وبيرا من البوسفور إلى داخل القرن الذهبي .

فقد جمع السلطان الاخشاب اللازمة ، وعمل حساباً للدفاع عن المشروع إذا حاول أهل القسطنطينية عرقلته فمهدت الارض أولا ، ووضع الخشب بطريقة يسهل عليها انزلاج السفن وجزها . وكان

أصعب جزء فى المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفع . ولكنا يجب أن نلاحظ أن السفن العثمانية كانت بصفة عامة صغيرة الحجم خفيفة الثقل نسبيا .

تم المشروع بسرعة قبل أن يستطيع البيزنطيون التدخل والعمل على إتلاف السفن ، فالسلطان قد أخذ حذره تماما ولم يترك شيئا للظروف . ولذا فى ٢٢ ابريل نجح السلطان فى نقل حول سبعين سفينة من البوسفور إلى القرن الذهبى .

وكان هذا العمل عظيما بالنسبة للعصر ، بل معجزة من معجزاته فى سرعة التنفيذ . ولو أن فكرته ليست من خلق السلطان محمد الثانى ، فهى فكرة قديمة استخدمت فى الماضى ، ولكن تطبقها وتنفيذها بهذه السرعة و بهذه الدقة يدل بلاشك على عقلية ممتازة ونفس واعية تستطيع الأحاطه بتفاصيل الأشياء ، وهمة عظيمة ، وإرادة فولاذية وعزيمة صادقة ونشاط متدفق لايعرف الكلل والملل ثم إلهام الناس بالطاعة التامة والتضحية بكل ماتمتلك النفس من عزيز . وكان المحاصرون فى مدينة القسطنطينية أكثر الناس تقديرا لذلك العمل الأجل واهتماما ، فما كان يستطيع التصديق به ، إلا من رآه . فلقد كان منظر هذه السفن

تسير وسط الحقول كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة للدهشة .

وأعجب من هذا سرعة نقل هذه السفن على منحدر الجبل مما يدل على كثرة الأيدى العاملة التى كانت تقوم بتنفيذ ذلك المشروع الضخم وحماسها ونشاطها . لقد تم كل ذلك فى ليلة واحدة !! وبهذا أصبح القرن الذهبى تحت رحمة مدافع زغنوس باشا . والفضل فى ذلك للمهندسين الأتراك ، فلقد شهد معاصروهم حتى من الأجانب بمواهبهم ومقدرتهم الممتازة .

وفى أثناء نقل الأسطول العثمانى عبر البر لم تقف المدافع العثمانية لحظة عن الضرب حتى لا تحاول السفن الأغريقية الراسية فى الميناء التحرك لمهاجمة السفن العثمانية المرابطة فى القرن الذهبى .

ولا يمكن تقدير الذعر فى مدينة القسطنطينية حين ظهر الأسطول التركى فى القرن الذهبى فكان من الضرورى تحصين جبهة القرن الذهبى وترميم الأسوار الخربة ، ووضع من يقومون بالدفاع عنها ، وخاصة وأن هذه الجهة كانت موطن الضعف فى المدينة . إذ من هذه الجهة استولى الصليبيون عليها فى سنة ١٢٠٤ !

ماهذه الظروف المؤلمة لحامية قليلة العدد نال منها القتل والجراح

والتعب ! عليها الآن أن تقسم نفسها لتدافع عن أخطر نقطة فى أسوار المدينة . لقد حوصر الأسطول الأغريقى فلم تعد له حرية الحركة ، ووقع فى خطر عظيم .

لقد كان الموقف ميئساً للغاية . فماذا تعمل بيزنطة أمام عدوها الهائج القوى . وكان على المحاصرين أن يراقبوا بدقة حركات الأسطول التركى فى القرن الذهبى خوفا من أن تدمر سفنهم ، وأخذوا يفكرون فى كيفية تدمير الأسطول العثمانى ، ولكن هناك مغامرة فى تنفيذ مثل ذلك المشروع ، لقد قال فريق بجمع السفن المسيحية ومهاجمة السفن الإسلامية الراسية على الجانب الآخر للقرن الذهبى .

ولكن لتنفيذ مثل هذه الخطة كان من الواجب تعاون الجنويين فى غلطه ، ولكن الجنويين فى غلطه ما كانوا يجرؤون على إعلان الحرب على السلطان أو القيام بعمل يرى فيه السلطان أى اعتداء على حقوقه .

وقال فريق بارسال قوة لمهاجمة السفن التركية وتدمير البطاريات الموجودة هناك . وقال فريق ثالث بأن تقوم السفن المسيحية بمهاجمة الأسطول العثمانى دون استشارة جنوى غلطة أو موافقتهم ، ويكون ذلك بسرعة قبل فوات الوقت . وأقر ذلك المشروع وقرر تنفيذه .

وفى ٢٤ إبريل قامت سفينتان تؤيدهما سفينتان أخريان لتأدية هذه المهمة ، ويقول المؤرخ المعاصر باربرو بأن الجنويين أصحاب بيرا وغلطه « أعداء المسيحية » قد أعلموا السلطان بالمشروع البيزنطى ، فأخذ السلطان حذره واستعد استعداداً كافياً بتحصين المكان الذى تجمع فيه الأسطول العثمانى وأعده بالأسلحة اللازمة. لقد رأى الجنويون فى هذه الحملة البيزنطية حملة للبندقة يجب معارضتها والعمل على إخفاقها.

فإلى هذا الحد تدخلت الأحقاد والمنافسات بين الجمهوريتين الايطاليتين جنوة والبندقية ، وكان غرض الجنويين التقرب للسلطان على حساب بيزنطه والبندقة .

كان على البيزنطيين الآن تقسيم قوات دفاعهم وتوجيه جانب لا بأس به من هـذه القوات إلى إلى الدفاع عن ناحية القرن الذهبي ، ولما كانت قوات الدفاع عن ناحية القرن الذهبي ، ولما كانت قوات الدفاع قليلة العدد كان اقتطاع جزء منها معناه إضعاف الدفاع فى النواحى الأخرى .

وأحس البيزنطيون بذلك الخطر الجديد ، ولا بد من العمل على مقاومة الأسطول التركى الموجود فى القرن الذهبي قبل أن يستفحل خطبه ، ولذا وضع مشروع لتدمير السفن العثمانية فى مراسيها . ولم ينفذ المشروع

البيزنطى الجديد إلا فى ٢٨ إبريل فكانت ثلاث سفن كبيرة ، وسفن أخرى صغيرة بهمة الهجوم ، واختلف قباطنة السفن فيما بينهم ، فأراد البعض التقدم فى الهجوم لينال شرف الفوز ، فأصابهم جميعا الفشل الذريع ، وانطوت سفنهم فى اليم غرقى بمن فيها ، وانهزمت الحملة وسقط المشروع ، ورجعت السفن المسيحية التى نجت بصعوبة من مدافع الأتراك .

وكان لهذه الهزيمة أثر كبير على نفوس المحاصرين ، فلقد فشلت آمالهم وتحطمت ، وضاع جانب كبير من ثقتهم بأنفسهم ، وأما من استطاع من البحارة الأغريق أو الأجانب الوصول إلى الشاطىء ، فلقد قبض عليهم الأتراك وضربوا أعناقهم تحت أسوار المدينة المحاصرة وتحت أنظار البيزنطيين ، وأجاب الامبراطور البيزنطى على ذلك بأن أتى بمائة وخمسين من الأتراك ، وشنقهم على الأسوار بمرأى من الجيش التركى . وقام النزاع الحاد بين البنادقة والجنويين فى القسطنطينية ، وتحزب لكل من الفريقين بعض الأهالى ، واتهم كل واحد منهما الآخر بأنه سبب الفشل البحرى السالف الذكر ، وكادوا يتشاجرون لولا تدخل الامبراطور البيزنطى فى الوقت المناسب ، ونصحه للفريقين بأن يراعيا قبل كل شىء مصلحة المسيحية التى تعانى الآن من خطر كبير لا يرحم حياتها ولا ضعفها .

واستمر الأتراك فى دق أسوار المدينة وفى محاولات نقبها ، واستمر البيزنطيون فى محاولة إصلاح العطب ليل نهار دون هواده ولكى يسهل السلطان محمد الثانى الاتصال بين جنوده على الضفة اليسرى للقرن الذهبي وجنوده حول الأسوار أنشأ قنطرة عظيمة عائمة ينتهى طرفها عند نقطة ضعيفة فى الأسوار البيزنطية ، مما دعا المحاصرين إلى اتخاذ وسائل الحيطة فى هاته النقطة وتقسيم الدفاع الصغير العدد من جديد .

لقد زاد مركز المدافعين ضعفاً على ضعف ، فعددهم قليل و يتناقص باستمرار و بسرعة ، وعليهم الدفاع عن أسوارطو يلة ضعيفة فى بعض النقط ، أمام مدفعية متفوقة ، وعدو لا يرحم ، فكان لا يهدأ للمحاصرين بال ، ولا يسكن لهم روع ، ولا تطمئن لهم نفس أمام ذلك الضرب المتواصل من كل جانب ، بينما كان عددهم يقل ، ورعبهم يزداد فى كل وقت خشية مباغتة الأتراك لهم ، واستمرت الحال على هذا النحو إلى آخر اليومين الأوليين من مايو ، فبدأ يظهر للعيان جليا عجز المؤن داخل المدينة وخاصة الخبز والنبيذ وكل ما يلزم لتقوية الجنود المدافعين المرهقين .

وكان على المدافعين أن يتركوا مواضعهم فى كثير من الظروف

و يقطعوا المسافات الطويلة داخل المدينة لاكتساب رزقهم وتناول الطعام مع عائلاتهم ، ورأى الامبراطور البيزنطى خطر الموقف ، فعمل على توزيع الطعام على الجنود فى أماكنهم ، وفى الوقت نفسه كان السلطان محمد الثانى حريصاً على تغيير المهاجمين ومن يقومون بالضرب بحيث يستطيعون الاستراحة والاستجمام واستعادة النشاط .

وفى أثناء هذه الظروف القاسية فكر الامبراطور فى بعث سفينة لحث أسطول البندقية فى بحر الأرخبيل على الاسراع لمعونة القسطنطينية فى أيامها الأخيرة ، و بذل آخر مجهود لانقاذ أعظم مدنية مسيحية فى البلقان ، ولكن هذه السفينة التى تحمل آخر أمل للعاصمة البيزنطية لم تجد الأسطول البندقى ورجعت خائبة حزينة آسفة .

ثم أمر السلطان بالهجوم على الأسوار مرة أخرى هجوماً عنيفاً ، حينئذ طلب البطريرك وعظماء القسطنطينية وجستنيانى إلى الأمبراطور قسطنطين أن يترك العاصمة نهائياً وأن يذهب إلى مكان آخر يستطيع منه إثارة الأمور على العثمانيين ، فقد يضطرون إلى رفع الحصار عن العاصمة ، ووضع جستنيانى إحدى سفنه تحت تصرف الامبراطور ، ووعد بمساعدته على الخروج من عاصمته المحبوبة . وكان الغرض من هرب قسطنطين أن يجمع حوله شتات رعاياه فربما استطاع الاتفاق

مع إسكندر بك الألبانى أو البابا ، ولكن الأمبراطور أنصت لهذا النصح ساكناً ، ثم أطرق ملياً يفكر تفكيراً عميقاً ، ثم شكر أتباعه على النصيحة القيمة التى أسدوها وقال :

« ربما يكون فى خروجى من المدينة بعض الفائدة لى . . . ولكنه من المستحيل أن أخرج ، وكيف أترك معابد لله يذكر فيها اسم الله ، وكيف أترك موالى الرب ورجال الدين والعرش والشعب فى هذه المحنة العظيمة ، ماذا يقوله العالم عنى ، أننى أرجوكم ألا تتكروا فى المستقبل هذه الكلمة « اخرج » وإنما قولوا لا تتركنا ، ولن أتركم مادمت حياً ، فلقد عزمت عزما لارجوع فيه على الموت معكم » .

ثم بكى الأمبراطور وبكى معه البطريرك وكل الحاضرين .

فى هذا الوقت تبدت شخصية هذا الأمبراطور العظيم وبطولته أمام أهوال ومحن تكل عن تحملها الجبال الرواسخ .

وفى ١٢ مايو قام الأتراك بهجومهم العنيف ، وكانت الأسوار قد نالها عطب كبير ، ولكن ذلك الهجوم لم يصب نجاحا كبيراً ، وامتلأت الكنائس داخل المدينة بالمصلين الذين يدعون الله قياما وقعوداً بانقاذ المسيحية فى بلاءها العظيم .

ووجد السلطان محمد الثانى أن يركز الضرب فى منطقة باب القديس

رومانوس ، وهاجم العثمانيون مراراً الأسوار على فم القرن الذهبي دون جدوى . وحاولوا حفر سراديب تحت الأسوار ونجحوا فى ذلك إلى حد ما ، ولكن الأغريق تجحوا فى القضاء على ذلك المشروع . ولكن محاولات الأتراك هذه أقضت مضاجع السكان ، فكانوا يخشون كل ليلة دخول الأتراك المدينه فجأة بهذه الوسيلة ، وتصوروا سراديب خيالية نجح الأتراك فى إنشائها

ولقد لجأ السلطان إلى بناء حصن متحرك سريع أمام الأسوار مما أدخل الرعب فى قلوب المحاصرين ، وأنشأه بطريقة بحيث لا يمسك به اللهب . ويصيب كل آلات الرمى والضرب فى المدينة ، مما جعل الدفاع فى خطر شديد ، فلقد تحطمت أربعة أبراج وامتلأ الخندق ، وقام الاتراك بهجوم عظيم فى ناحيـة باب القـديس رومانوس ، ولكنهم اضطروا إلى الانسحاب مرة أخرى أمام دفاع البيزنطيين اليائس ، وبذا نجت المدينـة ، واحترق حصن الاتراك المتحرك بأكمله مما زاد فى فرح الاغريق ، فعادوا يشكرون العـذراء على إنقاذها لهم .

* * *

فتح القسطنطينية

ولكن السلطان محمد الثانى ما كان يعرف اليأس أو يتسرب إلى نفسه القنوط ، فعاد إل اتخاذ خطط جديدة . وفى أثناء ذلك الوقت رجعت البعثة التى كانت أرسلتها القسطنطينية لتستحث أسطول البندقيه الذى كان يظن أنه موجود فى البحر الارخبيلى . لم تجد هذه البعثة الاسطول ، ورجعت متحطمة الآمال . ولما عرفت المدينة المحاصرة ذلك النبأ العظيم سكنت قلوب أهلها لحظة وذرفت عينا الامبراطور البيزنطى بالدموع ، وكان ذلك آلم خبر تلقته المدينة البائسة المفزوعة التى توشك أن تقع فى أيدى أعداء حلفوا جهد أيمانهم ليستبيحنها — كان ذلك الاسطول آخر أمل لهؤلاء المحاصرين المرهقين الذين لم يذوقوا طعم النوم ولا الراحة ، كان آخر أمل لهم مجئ أسطول البندقية لنصرتهم و إمدادهم و إعطائهم فرصة للأمل فى الحياة والراحة والهدوء بعضاً من الوقت ، ولكن توفى ذلك الأمل كما توفيت الآمال السابقة .

كان ذلك فى مساء ٢٣ مايو ، وعرف أهل القسطينية أن المسألة مسألة أيام للهجوم التركى العام والاستيلاء على المدينة . ولقد عقد الامبراطور مجلساً للنظر فى الحالة ، فنصح أعضاء ذلك المجلس له بالهرب ،

« إذا لم يمكن حماية المدينة ، فيجب حماية الأمبراطور . عند ذلك أغمى على ذلك الامبراطور الذى ناءت به المخاوف وأنهكه بذل النشاط المتواصل ، وكاد يقتله التعب المستمر فما عرف راحة ولا هدوءاً عقلياً أو جسمياً ، ولكنه أبى إلا أن يشارك أهل المدينة مصيرهم ، وقال : « إن عدداً كبيراً من الأباطرة قد مات وهو يحمل السلاح ويقاتل فى ميدان الحرب ، ولن يكون هو الوحيد الذى يفر من ميدان القتال خوفا من الموت أو حرصاً على الحياة » .

وأما فى الجانب الاسلامى ، فلقد عرف الاتراك العثمانيون أن المدفع وحده والصبر هما اللذان سيقضيان على هذه المدينة ، ولذا فالضرب مستمر ليلا ونهاراً واشتغل أهل المدينة رجالا وشباناً وشيباً ونساء وأطفالا فى تعمير العطب الفادح الذى لحق الاسوار ، وانتظروا جميعهم فى هلع متزايد من ساعة لأخرى هجوما عاما للأتراك لا يبقى أمامه شيئاً ولا يذر .

وكثرت الأوهام والخيالات ، وتصور الناس ما شاء لهم التصور ، فبعضهم تصور جيشا مجريا عظيما بقياده هونيادى قد زحف لتخليص القسطنطينية ، وتوهم البعض أسطولا عظيما قادما من البحر ، وظن الآخرون أن الملائكة سيتدخلون فى آخر لحظة ويدمرون الأعداء تدميرا .

ولكن هذه الخيالات كانت سرعان ما تتقشع وهذه الأوهام سرعان ماتتبدد وأصبحت هباءاً لا قيمة له ولا غناء أمام الوقائع والحقائق التى تراها أعينهم ويحسونها . لقد مضى زمن المعجزات وخارت قوة الدفاع ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع وكيف يحيا أمل أمام قوة الاتراك الساحقة وتصميمهم على أخذ المدينة ، وأمام مدافعهم الضخمة التى تحدث من الدوى ماتهلع له القلوب ، وتحدث من التخريب والتحطيم فى أسوار المدينة ماشاءت أن تصنع .

وركز ضرب المدافع الشديدة فى ثلاث نقط من ناحية باب أدرنة و باب القديس رومانوس والثالثة ناحية الباب الثالث الحربى ووضع سكان المدينة أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت وكان أكثر النواحى عطباً الناحيتين الأوليين .

ثم أرسل السلطان محمد الثانى قائد هذه القوة العظيمة وزعيم ذلك الشعب القاهر المنصور ، أرسل رسوله اسماعيل حمزه اسفنديار أوغلى لكى يحمل إلى الأمبراطور البيزنطى نصيحة سيده فيقرر له أنه لم يعد هناك فائدة من الإستمرار فى الحرب : وأن المدينة ستسقط عنوة ، وتنهب ، وتنتهك حرماتها ، يقتل رجالها وتصطفى نساؤها وأطفالها ، أو تباع فى الأسواق ، وأن السلطان محمداً يقترح أن يخرج الامبراطور

من المدينة هو وأهله وحاشيته و بلاطه إلى الباوبونيز ، ويحكم هناك ، ومن شاء من أهل المدينة فليخرج فى أمان ، ويتعهد السلطان بحماية البافين ، والمحافظة على حياتهم وممتلكاتهم ، وذلك إذا قبل الأمبراطور تسليم المدينة .

وكان يربط اسفنديار بقسطنطين صلات معرفة قديمة ، فنصحه بالتسليم ، ويظن بعض المؤرخين أن السلطان لم يكن مخلصاً فى دعوته هذه ، وما كان يريد فعلا تسليم قسطنطين ، وإنما كان يريد أن يدرس الحالة النفسية فى القسطنطينية ، ولا يوجد شىء يدعو إلى الشك فى إخلاص السلطان فى دعوته قسطنطين ، فهو يعرف أن المدينة قد تستطيع الدفاع مدة أخرى وهو بلا شك يرغب فى حقن دماء الفريقين ما دام يستطيع الوصول إلى غايته ، وهى أخذ المدينة ، ولكن كان السلطان يفهم أنه لن يخسر شيئاً من وراء ايفاد هذه البعثة فهى إذا لم تصل إلى غرضها تستطيع التقرير عن حالة المدينة .

على أى حال كان الامبراطور قسطنطين يفهم ما يقضى به عليه واجبه ، ويعمل على المحافظة على مركزه ، فهو لن يقيم على ضيم يراد به مهما كانت النتائج ، لقد كان يستطيع الفرار إذا كانت الحياة الدنيا قد ملسكت عليه نفسه ، ولكن قسطنطين بين لمبعوث السلطان أنه

لن يستطيع قبول هذه الشروط المهينة ، وإنه لم يطالب ولن يطالب بديلا بمدينته ، وعاصمة ملكه ، وحاضرة من سبقوه من الأباطرة ألف عام ، ثم بعد ذلك ليس لديه أى سلطة تبيح له تسليم المدينة ، وأنه قد وطد النفس على الموت .

وبذا يئس السلطان محمد الثانى نهائياً من تسليم المدينة صلحاً ، فلا بد إذن من بذل كل جهوده لدخولها عنوة .

ولذا فى ٢٧ مايو سنة ١٥٤٣ عقد مجلساً حربياً فى معسكره أمام الأسوار وتناقش هو وقواده فيما ينبغى عمله ، ويقال أنه عرض رأيان فى ذلك المجلس العسكرى ، فكان الرأى الأول رأى خليل باشا ، وهو رجل مسن قد إزداد حذره بقدر ما إزدادت تجاربه ، ولكن السلطان لم يكن بكبير التعلق به بالرغم من أنه أبقاه فى منصبه ، وكان البعض يتهمه بمالأة المسيحيين .

بين خليل باشا أنه لا داعى لبذل هذا المجهود العنيف فى أخذ هذه المدينة ، ولا داعى لكل هذه العمليات الحربية ، ولا مبرر لاراقة الدماء بهذا الشكل الاستيلاء على المدينة ، فهى ستسقط من تلقاء نفسها إن عاجلا وإن آجلا ، ثم بعد ذلك هل ستقبل أوربا سقوط القسطنطينية ؟ ففى نظر خليل باشا لن تسمح أوربا بسقوط هذه المدينة

بسقوط حصن المسيحية فى يد المسلمين ، فالبندقية ستتدخل بأسطولها ، وكذا هو ينادى المجرى ، ثم المدينة بعد ذلك حصينة ، واللاتين متفقون فيها مع الأغريق ، ولقد مضى وقت طويل ، وبذل مجهود كبير ، ولم تسقط المدينة بعد ، ولقد بذل الأتراك تضحيات كبيرة بدون فائدة ، وأن من الخير ترك المدينة مؤقتاً ، حتى يزداد مركز العثمانيين قوة وتسقط المدينة فريسة سهلة فيما بعد .

وكان الرأى الآخر رأى زوغنوس باشا الألبانى ، قائد الجنود غير النظامية ، وهذا الرجل من أصل ألبانى اعتنق الأسلام وحسن إسلامه وجاهد فى سبيله جهاداً مشكوراً ، وسما مركزه ، فأصبح ثالث اسم فى الدولة العثمانية بعد السلطان ، هذا الرجل لا يزال قريب عهد بالشباب ، فهو ممتلىء قوة ونشاط وأطماعاً ، وكان بينه وبين خليل باشا حقد دفين ومنافسة حادة ، لقد نصح هذا القائد الهمام بالصبر والمثابرة وتقوية الهجوم ، وتمثل بالاسكندر الأكبر المقدونى الذى استطاع فتح آسيا بجيش صغير ، واستهزأ زوغنوس بالخطر الذى سيأتى من ناحية الغرب ، فبين أن الدول الأوربية المسيحية وخاصة الجمهوريات الايطالية منقسمة على نفسها ، وهى تضيع الوقت الثمين فى مشاجرات على مسائل تافهة ، ووضح أنه حتى لو استطاعت أوربا أن تتفق فيما بينها ، فهى

لن تقدر على إرسال قوة كبيرة لتخليص القسطنطينية فى الوقت المناسب ولذا لا يجب التفكير فى ترك المدينة قبل أن يتم فتحها للاسلام وللأتراك ولآل عثمان .

وأيد ذلك الرأى قادة الجيش الآخرين وضباطه، كما عضده العلماء بكل قوة وعلى رأسهم الشيخ آق شمس الدين والشيخ أحمد الكورانى خوجة السلطان .

ولقد كان السلطان محمد الثانى من نفس ذلك الرأى ، حتى قبل انعقاد المجلس العسكرى ، ولكنه أراد أن يجمع ذلك المجلس ليختبر قوة رجاله ويمتحن عزيمتهم وليعمل على تقوية ثقتهم بأنفسهم .

وكانت النتيجة ما يريد السلطان ، فلقد زاد جنوده عزماً على عزم للقضاء نهائياً على البيزنطيين وحلفائهم من اللاتين ، ولذا فكر فى هجومه الأخير الذى سيضع المدينة تحت أقدامه ،

وفى ٢٧ مايو أعد السلطان الهجوم العام على المدينة فصام الجيش كله ، وعلمت الدعوات بانجاز الفتح ، وأمر مدفعيته بالأمعان فى تحطيم الأسوار عند وادى ايكوس ، ونظم الفرق التى ستقوم بالهجوم العام ، فعلى كل فريق القيام بالهجوم من جهة معينة ، ثم إخلاء الطريق للفريق الآخر الذى سيقوم بالهجوم بعده ، وبذا تستطيع الجنود المهاجمة أن

تأخذ بقسطها من الراحة ، وزار السلطان كل أقسام جيشه المحاصر للمدينة وشجع الجنود وأثار فيهم روح التضحية ، وقوى فيهم الثقة بالنفس وبالنصر ، وطلب من الجنويين المقيمين فى غلطة أن يمتنعوا تماما عن تقديم أى مساعدة للمدينة المحاصرة .

وأرسل من نادى بين الجنود بأن المدينة ستترك لهم ثلاثة أيام يستبيحونها كيفما شاؤا ، رجالها ونساءها وأطفالها وكنوزها ستكون جميعها تحت تصرفهم لمدة ثلاثة أيام كاملة ، وأقسم بالله جهد أيمانه ليبرن بوعده ، وكان لذلك القسم أثر كبير فى نفوس الجنود الذين سيقومون بالهجوم .

ولقد أمر السلطان كل جندى بالمحافظة على الموقف المخصص له وعاقب بالقتل كل من حدثته نفسه بمخالفة الأوامر أو الاخلال بالنظام.

واستمرت المدافع العثمانية فى ضرب المدينة البائسة دون هوادة أو توقف ، و بشدة وعنف لا مثيل لهما فى ذلك الوقت ، فجرح جون جوستينيانى الجنوى زعيم المدافعين و بطلهم الغير مدافع ، واضطر سكان العاصمة المسيحية إلى نقله إلى داخل المدينة ، ولكنه رجع ثانى يوم ليعاود القتال . وفى أثناء ذلك أضاء المعسكر العثمانى كما كان يضاء كل ليلة بآلاف المشاعل التى تحول الظلام نوراً باهراً يأخذ بالأبصار ،

وكانت الجنود العثمانية قد جمعوا كل المواد اللازمة للصراع المقبل وللهجوم ولتسلق الجدران . وتعالت الأصوات للحى القيوم تنادى الله أكبر الله أكبر وتنطق بالشهادتين وتلعن المسيحيين وتنذر بالويل والثبور. وضربت الطبول ونفخت الأبواق والمزامير ، وحدث الجنود أنفسهم بالغنائم الهائلة العديمة النظير التى سيستحوذون عليها .

وبجانب هذا الحشد الهائل والأنوار الباهرة والطبل والزمر والتكبير بدت المدينة الحزينة المتألمة تترقب نهاية مفزعة ، تنتظر الفناء وتدعو الله أن ينقذها من العذاب الأليم ، ومن ذلك الخطر العظيم الذى لم تعرف مثله .

ثم أطفئت أنوار المعسكر الاسلامى فجأة وعم الظلام ، ولم يبق أمام المحاصرين سوى البكاء والتوسل إلى الله وطلب رحمته ، وجمعت الأيقونات ، وطلب توسطها هى والقديسيين لدى مريم العذراء أن تنقذ المدينة من العذاب الذى أحاط بها سرادقه ، ولكن ضرب المدينة كان مستمراً بدرجة ظن معها المحاصرون مجئ يوم القيامة .

وأمر السلطان أن يتعاون الأسطول مع الجيوش البرية فيقرب من البر ويهاجم الأسوار على ضفة القرن الذهبى ، وبذا يشغل عدداً كبير من المحاصرين فى هذا الجانب .

وقام السلطان بتفتيش الجيش واستعداداته بدقة وعناية كبيرتين فهو من الشخصيات القيمة التى تظهر قوتها فى المواقف الجليلة الحاسمة وهى التى تستطيع خلق الثقة فى النفوس وحفز العزائم ، والعبقرية هى التى تستطيع الاستفادة من التجارب السابقة وتحيط بالمواقف دراسة وتعرف مواضع النقص فتعالجها .

فى هذا اليوم نظم محمد الثانى جيوشه على نسق نادر المثال ، ثم جمع ضباطه وقواده فى اليوم السابع والعشرين من مايو ، وخطب فيهم كما تقول قصة أخذ القسطنطينية لشلوبرجر فقال :

« إننى لم أجمعكم فى هذا المكان لأبعث روح الحماس فيكم ، فما ينقصكم هذا الروح ، ولقد أظهرتم هذا الروح فى أكثر من موضع ، ولقد سرت عدوى هذه القوة إلى نفوس جنودكم ، ولكنى جمعتكم لأعرض أمامكم المكافأة والثواب الذى سينالكم بعد الهجوم القريب المنتظر ، فأمامكم مدينة الكنوز والثروة والجمال والغنى والنفائس التى تزدحم بها الكنائس العديدة والقصور الكثيرة . ستأسرون سادة القوم وتستعبدونهم ، وهناك النساء الجميلات والحور العين اللاتى لم تقع عين إنسان على مثلهن ، ستتزوجون بمن تشاءون منهن وتستخدمون من تشاءون » .

وصور السلطان جمال قصور القسطنطينية وقال إنه :

« يعدهم بمدينة عظيمة هى عاصمة الرومانيين القدماء ، مدينة المجد والترف والعز ، مركز العالم — هذه المدينة ستستبيحونها بما فيها من كنوز ورجال ونساء ، وذلك بعد أن وقفت أعواما طوالا أمام الأتراك وأمام الاسلام وعملت على إضعافه واتحدت مع أعدائه »

« إن سقوط القسطنطينية سيعطى للعثمانيين الطمأنينة النهائية ، ويفتح لهم كل بلاد الأغريق » و بين السلطان لجنوده « أن فتح هذه المدينة ليس بالأمر العسير ، فهى لن تقف أمام هجومهم » لقد سدت خنادقها وتهدمت أسوارها ، وانفتحت فيها ثغرات كبيرة ، وأن الطريق أمامهم واسعة لنيل المجد والعز واللذة ، فالمدافعون قليلو العدد قد أرهقوا إلى الموت ، وليس لديهم من السلاح أو عدد الحرب ما يستطيعون أن يناضلوا به مدة طويلة « ولذا فالنصر مكفول لنا »

وأشار إلى أنه بالإرادة القويةوالعزيمة الصادقة والطاعة العمياء فى تنفيذ الأوامر واتباع النظام والنصر مضمون لا مراء فيه .

ثم أمرهم عند ذلك بالرجوع إلى أماكنهم وتناول طعامهم والاستراحة والاخلاد إلى السكينة التامة حتى مطلع الفجر فتأتيهم الأوامر بالقتال وعندئذ عليهم بالهجوم العام .

وأعطى تعليماته لقواده العظام :

فالأسطول يقترب من الأسوار ويهاجمها من ناحية القرن الذهبي وزوغنوس باشا يهاجم الأسوار التى تقع فى ناحيته . وعلى صاريجه باشا أن يقوم بهجوم عام فى المنطقة التى تكثر بها الثغرات ، وأما اسحق باشا ومحمود باشا الابنان يقودان الجيوش الأسيوية أوجيوش الأناضول فيقومان بالهجوم من ناحيتها . ويقوم فريق بتسلق الأسوار يعضدهم فريق آخر بجانبهم ، وأن يشتد الهجوم فى منطقة باب القديس روسانوس حيث يوجد جون جوستنيتانى وتابعوه من الايطاليين والأجانب

وفى نفس المدينة الحزينة قامت الاستعدادات اليائسة ، فلقد علم سكانها بالهجوم العام الذى سيباغتهم ، ووقف كل منهم فى موضعه المخصص . وتخيل فريق آخر من آهالى القسطنطينية أن سكون المعسكر التركى معناه استعداده لترك الحصار ومغادرة المدينة ، ولكن الفريق الأكبر كان على يقين بأن الهجوم التركى العام قادم لا ريب فيه .

وعم الحزن المدينة ، وأيقنت بالهلاك ، وبكى رجال الدين عاقبة الفساد فى هذه الدنيا ، وسوء تصرف المسيحيين حتى حاق بهم هذا الوبال ؛ وأحاط بهم العذاب وتضاعفت عليهم الهموم من كل جانب . وظن الكاثوليك أن سبب ذلك الوبال رفض الأرثوذكس قبول

المذهب الكاثوليكى ، وظن الأرثوذكس أن ذلك العذاب نتيجة لقبول الدولة اتباع مذهب رومة ، وظن ثالث أن ذلك العذاب نتيجة لاهمال الدين وعدم تقديم فروض الاحترام الكافى للقديسين . وعنت كل الوجوه للحى القيوم الباقى ، وأما الأمبراطور فلقد أوضع فى الحرب ، وشمر فيها مستميتاً ، ورضى بما قسم الإله وقدر ، وسار فى موكب عظيم من الكاثوليك والأرثوذكس من القسس والرهبان ، من الرجال والنساء يبكون بالدمع الغزير و يمزقون شعورهم معلنين خطاياهم داعين الله أن يخفف عنهم و يغفر لهم ، وألا يوقعهم فى أيدى الأتراك ، وسار الموكب على هذا الحال منشداً الأدعية الدينية ، وردد ذلك من تبعهم من العامة والناس ، وحملت الايقونات على الأسوار ذاتها .

وحث الناس فى المدينة الخالدة بعضهم بعضاً على الموت وعلى بذل النفس فى سبيل الدفاع عن مدينتهم ، وخطب الأمبراطور البيزنطى فى عظماء من الأغريق واللاتين ، وكانوا كلهم قد وطنوا النفس على الموت — حاول الأمبراطور تقوية نفوسهم وتعزيتهم و بث روح التضحية فى سبيل مدينتهم المسيحية المعذبة ، فطلب منهم أن يستعدوا من الآن للموت وقال لهم : « إن الساعة قد أزفت وأن الأعداء الأتراك القساة مصممون على ابتلاعها » وطلب منهم التيقظ ومدافعة

الأعداء بكل ما أوتوا من قوة وصبر ، و بين لهم أنهم سيبذلون أرواحهم فى سبيل الدفاع عن مدينتهم المحبوبة ، ماسكة المدن « للدنيا وللدين وللأمبراطور ولأولادهم ونسائهم ، و إذا منحنا الله الرحمة والقوة سيولى عدونا الأدبار أمام سيوفنا ، و إذا كان الله سيعاقبنا بخطايانا بنصر هؤلاء الأعداء ، سيفقد المسيحيون حريتهم وكل عزيز لديهم

« إن المسيحيين ، كما خطب الامبراطور ، لهم الله ، بينما للمسلمين قوتهم ومدفعيتهم وفرسانهم ومشاتهم » وخاطب البنادقة الموجودين ومدح شجاعتهم وعدد صفاتهم النبيلة ، وطلب بذل كل شىء حتى النفس فى سبيل الدفاع عن القسطنطينية مدينة المسيحية . وواجه رجال جنوه بنفس الكلام .

وقال لمواطنيه « لا تفقدوا شجاعتكم . إن للأتراك البرابرة عددهم وسيحاولون بهجومهم العام القضاء عليكم ، ولكنكم أنتم القليلو العدد عندكم قوة أسواركم ، ومعاونة حلفائكم الشجعان ، وعون الله القادر على كل شىء ، لقد تدربتم على النضال والصراع ... واظهرتم عظيم إخلاصكم لوطنكم » عند ذلك لم يفكر هؤلاء الجنود الأسود لا فى أطفالهم

ولا نسائهم ولا مصالحهم فى ذلك العالم وإنما جعلوا هدفهم الوحيد الموت فى سبيل القسطنطينية .

واجتمع العدد الكثير من سكان المدينة ومعهم الامبراطور والقساوسة والقواد تحت قباب كنيسة سانت صوفيا يدعون ويبتهلون وكان هذا آخر حفل مسيحى فى هذه الكنيسة العظيمة ، نسى هؤلاء كلهم أحزانهم أمام الموت المحقق القريب ، ومزجوا صلاتهم بالحماس العظيم ، ثم عاد الكل إلى مواضعهم على الأسوار وإلى حماية الأبواب .

وفى أثناء الظلام الدامس اقترب الجنود الأتراك من الأسوار ، وقرب بزوغ آخر فجر رآه الامبراطور ، وتقدم الأسطول العثمانى ، واحتل بالقوة المواضع التى خصصت له . وهجمت الجيوش هجوماً عنيفاً من كل جانب فى نقط عديدة ، ولكن الهجوم الرئيسى كان فى ناحية وادى ليكوس . كبر العثمانيون أثناء هجومهم ، وصدحت موسيقاهم فملأت الجو وعمت الضوضاء بين الهجوم والدفاع ودقت نواقيس الكنائس

بدأ الباشى بذق بالهجوم اولا ، وكان بينهم عدد كبير من المسيحيين الكاثوليك من الألمان والهنغاريين والاغريق واللاتين ، وكانت غاية الأتراك من بعث هذه الفرق فى الطليعة استنزاف دماء الأعداء وإنهاكهم واستهلاك ذخائرهم الحربية .

هاجم الباشى بزق فى الظلام ، وحاولوا تساق الأسوار فى جبهة طويلة وكانت أسلحتهم مختلفة كاختلاف أجناسهم ولغاتهم وأشكالهم . وحاولوا نشر الفوضى بين صفوف المدافعين ، واستمر هجومهم ساعة أو ساعتين وهلك منهم عدد كثير بالرغم من قوتهم وجرأتهم ، ولكنهم أنهكوا المدافعين الذين لم يذوقوا طعم الراحة لمدة طويلة .

ثم هاجمت جنود الأناضول عند باب القديس رومانوس ، وكان هذا بدء الهجوم الحقيقى ، وكان هذا عند بزوغ الفجر ، فأحدثوا بالدفاع عطباً جسيما ، واخترقوا الخنادق وهاجموا السور الخارجى واشتبكوا برجال الدفاع ، هاجم الأتراك فى كتل بشرية عظيمة منظمة من جنود وهبوا حياتهم للحرب ودربوا للحرب ، ولكن الأتراك لم يستطيعوا دخولها من النواحى الأخرى .

ولكنهم أحدثوا فى الدفاع ثغرات ، كما أحدثت مدفعيتهم فى القتال ثغرات ، ولاحظ السلطان أن ما يبتغيه من إحداث الفوضى بين صفوف المدافعين قد حدث ، عند ذلك دفع بجنوده الإنكشارية ، وكانوا لم يشتركوا فى القتال بعد ، فتقدموا فى وادى ليكوس كالأسود الضارية لا كرجال ، ليقابلوا رجالا قد أنهكهم التعب والجوع وأثخنتهم الجراح ، تقدموا بصياحهم الداوى ، وتكبيراتهم القوية ، وقربوا من

الأسوار الداخلية وقتلوا من وجدوهم من المدافعين وداس بعضهم بعضاً وصل بعض الانكشارية إلى داخل المدينة وارتقى الأسوار وأزال علم الأمبراطور وعلم البندقية ، ورفع علم الأتراك .

وفى هذه الأثناء جرح جوستنبانى جرحاً مميتاً فحمل وهو فى النزع ، وتدفق الأتراك إلى داخل المدينة . وأما الأمبراطور البيزنطى فأنه حمى أنفه ومات كريما لم تذم خلائقه . ولو شاء لعاش ملوما ذليلا مهيناً . وقتل الأمبراطور البيزنطى وسنه تسعة وأربعون عاما ، فكان آخر الأباطرة البيزنطيين ، وأما سراة المدينة فمنهم من غودروا صرعى تعاورهم الرياح ، ومنهم من هرب ، ومنهم من مات كمدا ، ومنهم من عاش ذليلا بحسرة نفس لا تنام همومها . وأما المدينة فاستبيحت حرماتها وكل شئ فيها للفاتحين لقد قتل أربعون ألف مسيحى فى الحصار والهجوم ، وأخذ خمسون ألفاً ، وسلم عشرة آلاف ، وقتل عدد كبير من الأرستقراطية الاغريقية ، وأخذ أبناؤهم ليتعلموا اللغة التركية والدين الاسلامى وضم النساء إلى حريم السلطان وحريم تابعيه .

ولقد عم الفزع المدينة حين دخلها الاتراك ، فحاول عدد كبير من سكانها بمختلف أعمارهم الهرب إلى الميناء ، والتجأ جم غفير إلى سانت صوفيا وغيرها من الكنائس معتقدين أنهم وجدوا الامان ، وأن

الآلهة ستحميهم من عدوان الترك ، وأن الملائكة ستنزل من السماء وتجعل العدو ترابا ، واغلقوا الابواب وتوسلوا إلى الله ، ولكن الاتراك حطموا الابواب واستولوا على كل شئ ، واستمر القتل اليوم الأول ، واستبيحت المدينة ثلاثة أيام .

تمكن السلطان من الانتصار لقوته وعزيمته وحماس جنوده وتفوق مدفعيته ، فوقعت المدينة تحت أقدامه .

وفى الظهر دخل السلطان محمد الثانى الفاتح المدينة من باب القديس رومانوس يمتطى صهوة جواده فى موكب حافل يتبعه وزراؤه وقواده وجنوده ، وسار فى الشارع المؤدى إلى كنيسة سانت صوفيا ، وترجل أمام الباب وانحنى ووضع حفنة من التراب على رأسه خضوعا لله وشكراً ودخل الكنيسة فبهره جمالها وبهاؤها ، ودخل إلى المذبح حيث قابله رجال الكنيسة وكانوا مختبئين فأحسن استقبالهم وأكد حمايته لهم ، وطلب من المسيحيين الفزعين الموجودين فى الكنيسة الذهاب إلى مساكنهم آمنين .

ثم طلب من أحد المؤذنين أن يؤذن للصلاة ، فصعد المنبر وأذن للصلاة لأول مرة فى هذه الكنيسة العظيمة ، فأصبحت أياصوفيا مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الاسلام .

ثم طاف السلطان بالمدينة وشاهد آيات جمالها وعظمتها ، ومر بالقصر الأمبراطورى فهاله مغادرة أصحابه له وزوال العز عنه فتمثل بأبيات للفردوسى فى هذا المعنى . وفى القسطنطينية أعلن السلطان محمد الثانى الفاتح زوال الدنيا القديمة ومجىء العالم الحديث .

وبعث إلى أمراء المسلمين وسلاطينهم ينبئهم بذلك الفتح العظيم فيقول ابن إياس صاحب بدائع الزهور أنه أرسل إلى مصر بهذا الفتح « فلما بلغ ذلك ، دقت البشائر بالقلعة ، ونودى فى القاهرة بالزينة ، ثم إن السلطان عين برسباى أمير خور ثانى رسولا إلى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح » .

ويحاول كثير من المؤرخين الأفرنج المبالغة فى وصف أعمال السلب والنهب والقتل التى قام بها الأتراك العثمانيون فى المدينة الخالدة، ونسبو ذلك إلى قسوة فى المسلمين ووحشية فى الأتراك ، ونسوا أن هذا روح العصر كله وأن هذا العصر عصر الحروب الصليبية وعلى أى حال لم يرتكب الأتراك العثمانيون فى هذه المدينة مارتكبه اللاتين الصليبيون حين استولوا عليها فى سنة ١٢٠٤ ، وقد كانت دائما محط أطماعهم ، وهذا هو وصف البابا أنسنت الثالث للبلوى التى حلت بالمدينة فى هذه السنة فيقول « إن أتباع المسيح وناصرى دينه الذين كان يجب أن

يستاوا سيوفهم ضد عدو المسيحية الأكبر ، قد سفكو الدم المسيحى الحرام وغرقوا فى بحاره ، هؤلاء لم يحترموا الدين ولا السن ولا الجنس ، فارتكبوا الزنا فى وضح النهار ... لقد سامت الراهبات والعذارى والأمهات الطاهرات لوحشية الجنود ... ولم يكتف هؤلاء بسلب ذخائر الامبراطور ولا نهب متاع الأفراد ، بل لقد وضعوا أيديهم على أرض الكنائس وثروتها . . . ، وانتهكوا حرمات الكنائس وسلبوا أيقوناتها وصلبانها وآثارها ومخلفات القديسين » وأضاف الاستاذ شارل ديل لقد دخل الجنود السكارى كنيسة سانت صوفيا ، وأتلفوا الكتب المقدسة ، وداسوا بأقدامهم صور الشهداء ... ، وجلست عاهره على كرسى البطريرك وارتفع صوتها بالغناء . . . ، لقد قضى على آيات الفن فى المدينة ، وأذ يبت التماثيل لتسك نقودا ... ، ولقد اعترف أحد الرهبان الذين شاهدوا هذا الحادث الأليم فقال : إن أتباع محمد ما كانوا يعاملون المدينة مثلما عاملها جنود المسيح ، ثم نظمت الحكومة الجديدة اللاتينية أعمال السلب والنهب وقسمت الامبراطورية بين اللاتين وفرضت الكثلكة بالقوة على اتباع المذهب الارثوذكسى ...

البوسفور

عوامل النصر

ماهى الاسباب التى جعلت من العثمانيين فى عهد محمد الفاتح قوة متفوقة من الطراز الاول إن لم تكن أعظم قوة فى القرن الخامس عشر الميلادى .

لقد تحدثنا عن شخصية السلطان محمد الثانى وعبقريته وقوته الدافعة وهناك عوامل مهمة ساعدت هذه العبقرية على الوصول إلى مآربها منها أن الدولة العثمانية دولة نشأت فى حوض البحر الابيض المتوسط فى ملتقى الطرق العالمية فتأثرت بحضارة الشرق والغرب معاً ، فمن الوجهة التاريخية تعتبر آسيا الصغرى التى أصبحت فيما بعد مركزاً للاتراك العثمانيين ، تعتبر جزءاً من الغرب منذ ذلك الوقت الذى خاض فيه الاسكندر موقعه إسوس ضد الفرس إلى الوقت الذى قامت فيه موقعة منذ كرت بين السلطان ألب ارسلان السلجوقى والدولة البيزنطية وانتهت بانتصار السلاجقة الحاسم . فليست الدولة العثمانية التى نشأت وترعرعت فى الاناضول دولة شرقية فحسب ، ثم إن ممتلكاتها نمت فى اوربا وآسيا فى وقت واحد ، كما ان سكانها لم يكونوا ينتمون إلى العناصر الشرقية وحدها ، بل كان عدد كبير من الاتراك العثمانيين

أوروبيين بلقانيين صقالية وأغريق . وحتى سكان آسيا الصغرى نفسها لا يرجعون كلهم إلى أصل تركى نقى ففيها العنصر المسيحى الاوربى الاصلى لا يستطاع إهماله ، فيخطئ من يظن أن الدولة العثمانية فى عهد الفاتح أو قبله بقليل كانت دولة شرقية بحتة ، حضارتها شرقية خالصة .

ومن ناحية ثانية الدولة العثمانية دولة مسلمة حنيفة حديثة العهد بالاسلام شديدة التمسك به فهى كبيرة الحماس له ، سباقة إلى الجهاد فى سبيل نشره ، فكان الدين الاسلامى مفخرتها وأداة وحدتها ، والجهاد فى سبيل الله وسنة رسوله من الدوافع التى تحفزها للحياة وللبقاء والانتصار

جعل الاتراك العثمانيون فى باكورة حياتهم الجهاد غرضاً من أسمى الاغراض التى ترمى إليها دولتهم ، وتوسيع رقعة الاسلام من أهم أهدافهم ، وزيادة عدد الذين ينطقون بالشهادتين من أعظم عناياتهم فهم كالعرب فى بدء حياتهم الاسلامية كل تركى ككل عربى محارب بطبيعته ، لا قيمة للرجل إلا بسلاحه ، ولا مركز له إلا بسابقته وجهاده وانتصاره .

و بعد ذلك فالاتراك لا يزالون فى شبابهم ، ولا يزالون يملكون القوة الكافية ؛ ولديهم حيوية لم ينضب بعد معينها ولم تفارقهم طوال

تاريخهم حتى فى أشد أوقات محنتهم ، فهم شعب جديد لايزال يتمتع ببساطته الأولى لم تفسده المدنية ، ولم تفتنه الحضارات المضمحلة التى كانت منتشرة فى كل البلاد التى هاجر إليها والتى فتحها . ولكنه استفادمن كل هذه الحضارات أحسن ما فيها . فلقد ورث عن التتار صفات السيطرة والميل للفتح والقهر ، وتشرب الميول والأفكار التى تساعد على القوة والميل للتجمع حول زعيم لغرض الفتح والانتصار الحربى ، وكانت عنده المقدرة على الحكم والأدارة ، واستفاد من الحضارة العربية نظاما دينيا واجتماعيا وقانونيا إسلاميا لازال محتفظا بحيويته ونقائه وصلاحيته للبقاء ، وأخذ عن الاغريق والبلقانيين بعض نظمهم وتقاليدهم . لقد اكتملت لدى الأتراك العثمانيين كل الصفات القوية التى أصبحت تنقص معظم الشعوب المعاصرة لهم .

أما من حيث نظام الحكم فلقد بلغ درجة كبيرة من الاتقان والدقة فى عصر الفاتح ، هذا النظام يشبه إلى حد النظام المملوكى فى مصر وإن كان يختلف عنه من بعض الوجوه . نظام وضع لاختيار من يرشحون لتولى أمور الدولة ، نظام يعنى أولا بانتقائهم ثم بتدريبهم وتثقيفهم ، ثم اختيار ما تؤهله صفاته العقلية والجسمية ومواهبة للوظائف التى تتناسب وهذه المؤهلات .

يشمل نظام الحكم الهيئة التنفيذية ، وهذه على رأسها السلطان وتتكون من البلاط والأدارة والجيش القائم من فرسان ومشاة .

والسلطان هو رأس نظام الحكم كله ومركزه وقوته الدافعة وهو أداة توحيده وتسييره وهو صاحب التصرف المطلق فى الأموال والأنفس ، وهو الذى يصدر الأوامر ويمنح الرتب ويفرق النعم والخيرات ؛ لا توجد سلطة أو قانون يحد من سلطته ولا رقيب عليه إلا الله والشرع فأوامره تأتى فى الأهمية بعد كتاب الله وسنة رسوله ، ومجموعة خطوطه الشريفة ومراسيمه وأوامره هى قوانين الدولة بعد القانون الاسلامى .

ولذا فالسلطان بالرغم من اتساع سلطته لا يجرؤ على مخالفة الشرع الشريف فهو يستفتى فى أمور الدولة المهمة وفى الأمور التى لها صفة دينية ، ومن هنا نشأت وظيفة المفتى وفى الدولة العثمانية ، وأصبحت هذه الوظيفة مهمة جداً بالرغم من أن ذلك الموظف الكبير كان كبقية الموظفين الآخرين قابلا للعزل ، إلا أنه لم يكن هناك مفر للسلطان من أن يستشيره حتى يكون مطمئنا أمام نفسه وأمام الرأى العام الأسلامى .

فكان السلطان إذن حريصا على رضاء الله وعلى استرضاء الرأى العام .

وكان الأتراك محبين لسلاطينهم مخلصين لهم متعلقين بهم إلى درجة التقديس أحيانا فلم يفكر الأتراك لمدة سبعة قرون فى تحويل السلطنة عن آل عثمان إلى عائلة أخرى .

وكان السلطان يعين فى إدارة الدولة الوزراء وهم على عهد السلطان الفاتح أربعة رئيسهم الصدر الأعظم ويليهم رجال الشرع وهم يعاونون السلطان فى الأمور الدينية والقضاء .

وبجانب السلطان مجلس الدولة وهو الديوان مكون من الوزراء والقضاة وموظفين المالية الكبار ، ورياسة هذا المجلس للصدر الأعظم فى حالة غياب السلطان .

أما من حيث الادارة فالسلطنة مقسمة إلى ولايات على كل منها بك .

وأذن للهيئة التنفيذية أن ينتمى أعضاؤها كلهم باستثناء السلطان إلى أصل غير تركى وغير إسلامى ، إلى أصل مسيحى صرف . تكونت الهيئة التنفيذية من أولاد وشبان نشأوا فى أحضان المسيحية وتربوا فى أوساط مسيحية بحتة من آباء مسيحيين خلص ، أخذ هؤلاء الأولاد والشبان من ديارهم الأصلية كرقيق للسلطان ، ودخلوا فى خدمته ليعيشوا فى ظله وكنفه وتحت رعايته .

لقد أخذ الأتراك العثمانيون أولاد الفلاحين من وراء المحراث وأبناء رعاة الغنم والخنازير ليجعلوا منهم جنودا وسادة ، قوادا وحكاما ووزراء، أخذوا أولاد المسيحيين ليجعلوا منهم قوادا للأسلام وزعماء ، همهم الوحيد وغاية حياتهم نصرة الهلال والدين الأسلامى وخدمة أكبر دولة إسلامية والقضاء على أعداء الاسلام .

فالنظام العثمانى كان يفصل بين هؤلاء الأبناء و بين آبائهم و بيئتهم الأصلية إلى الأبد ، فكم من قلب جريح و نفس مكلومة وحزن طويل حين يغادر هؤلاء الشبان أوطانهم وأباءهم وأمهاتهم ، سيذهب هؤلاء الابناء إلى مكان غير معروف حيث يربون على غير ما عهد الأباء والأجداد .

ومع ذلك فلم يكن أخذ هؤلاء الأولاد شرا لايمتزج به الخير ، فلقد كانت سلوى الآباء والأمهات أن هؤلاء الابناء سيفارقون فراقا نهائيا حياة الفقر والضنك . والبؤس التى عاشوها هم ، سيكون لهم مستقبل كبير ومجد عريض وعيش رخى ، فلقد كان الكثير من هؤلاء الابناء إذا وصل إلى مركز كبير يذكر أهله بالخير ، و يعاملهم فى الدنيا معروفا لا يبتغى منهم جزاءا ولا شكورا .

كان العثمانيون يختارون هؤلاء الأولاد والشبان من سن الحادية عشرة إلى سن العشرين ولم يكونوا يختارونهم حسب اسمائهم أوجنسهم أو عائلاتهم أو أحسابهم ، وإنما نظروا إلى وجوههم وقوة أجسامهم وبراعة عقولهم ، وقالوا لهم ستكونون جنودا لهذه الدولة التى اختارتكم ، وإذا أسلمتم واثبتم كفاية جسمية أو عقلية ستكونون قوادا لها وزعماء ، وإذا أقمتم الدليل على كفاية عقلية ورغبة فى الثقافة صرتم علماءها وحكامها ووزراءها . ثم يأخذون هؤلاء الأولاد والشبان ، ويعملون على تربيتهم فى طاعة قانون وتدرب واحد وفى ظل دين واحد هو الدين الاسلامى الحنيف .

كان هؤلاء الأولاد والشبان يؤخذون كذلك من الأسرى ، فكان السلطان ينتقى خيرة الأسرى وأولاد الارستقراطية المسيحية ليضمهم إلى حكومته وجيوشه ، أو كانوا يشترون أو يفرضون على أهل الذمة كضريبة ، واتبع نظام خاص فى جمع أولاد الجزية هؤلاء ، فعين موظفون لذلك الغرض يذهبون كل أربع سنوات إلى القرى وعين لكل منهم العدد الذى يجمع .

كان هؤلاء الأولاد والشبان يجمعون عادة من الجبال ومن الأماكن الفقيرة والقرى الصغيرة فى سن لا تربطهم بالأهل فيها روابط كثيرة متينة ، فى سن فيها الشك فى الدين ، وفيها انتقاد التقاليد ، ويغلب فيها

حب المغامرة والانتقال والسفر وتغيير نمط الحياة ، و يسمو فيها الخيال إلى العظمة والمجد ، فى سن أصلح للأخذ من السن التى قبلها سن الطفولة والسن التى تليها سن الاستقرار وتكوين العائلة ، فكانوا يؤخذون فى سن المراهقة .

يؤخذ هؤلاء الأولاد ليدربوا أحسن تدريب عسكرى عرفه العالم فى ذلك الوقت ، ولتفتح أمامهم سبل الحياة ، و يبتسم لهم المستقبل الزاهر .

وهؤلاء الذين اختيروا يصيرون عبيداً للسلطان رقيقاً له من يوم ماجمعوا ، يصبحون مماليك السلطان بكل معانى الكلمة ، هم مماليكه مدى الحياة ومهما ارتفعوا إلى مراكز عظيمة فهم يظلون دائما رهن إشارته وتحت تصرفه لايعتبرون حياتهم ملكا لهم ، فهو الذى اختارهم وهو الذى رباهم ، وهو الذى علمهم ، وهو الذى رقاهم . وهم مخلصون له الطاعة مدينون له بكل شىء .

خلق هذا النظام المحكم للدولة العثمانية خداما مخلصين للسلطان يتبعون أوامره و يلتفون حوله و يدافعون عنه ويحاربون فى صفوفه ، ولما كانوا قد تلقوا أحسن تدريب عرفه العالم فى ذلك الوقت كانوا خيرة جنود العالم يخاف سطوتهم العدو ولا يقف أمامهم شىء ، هذا إذا كانت

شخصية سيدهم والمدبر لشئونهم السلطان قوية محبوبة محترمة مهيبة الجانب ، ولقد كان سلاطين الدوله العثمانية إلى عهد الفاتح من أقوى الشخصيات التى عرفها التاريخ فى أى دولة ناشئة .

وهذا النظام فضلا عن أنه ينشىء للحكم أفراداً صالحين فهو يضيف إلى الأتراك والمسلمين عناصر سليمة فتية قوية ، و يقول البعض أنه قد يشوب إخلاص هؤلاء للدين الاسلامى بعض الشوائب . لقد أثبت التاريخ العثمانى أن كثيراً من هؤلاء خدموا الدولة واشتركوا فى إقامة صرحها وفى رفع ذكرها وكانت لهم يد طولى فى بناء مجدها .

وعلى أى حال فأولاد هؤلاء من بعدهم يربون فى بيئة إسلامية صرفة فينشأون مسلمين و ينضمون إلى بقية افراد الشعب التركى إذ لم يكن مسموحا لهم أن يصبحوا كآبائهم أعضاء فى هيئة الحكم .

فليس الرق فى الدولة العثمانية إذن نظاماً شائناً أو عاراً ، ولم يكن نظاماً للمستضعفين ، فالوزير فى الدولة يفخر بأنه عبد السلطان ، وأصحاب القوة والسطوة والنفوذ كان معظمهم إن لم يكن كلهم رقيق السلطان .

وأما الجيش فكان مكونا من عناصر مدربة أحسن تدريب لاتعرف عملا لها سوى الخدمة العسكرية وامور الحرب والاخلاص فى طاعة السلطان ، يمنحها المستقبل الزاهر والثروة والجاه . ونظام الجيش

يقوم على أساسين النظام الاقطاعى فالسلطان يهب الأرض على شرط أن يقوم صاحبها بالخدمة العسكرية فى الوقت الذى يطلبه فيه السلطان وعليه أن يعد الخيل اللازمة له ولاتباعه الذين يتحدد عددهم بمقدار ايراد الأرض ، وهذا النظام يشبه النظام الاقطاعى الأوربى ولكنه أصلح منه من الناحية الحربية ، فهؤلاء المقطعون يخدمون السلطان فى أى وقت يشاء ، ولأى مدة يريدها لا لمدة أربعين يوماً كما هى الحالة فى أوربا .

والأساس الثانى هو أساس الرق ؛ وجنود هذا النظام يختارون كما تختار هيئة الحكم ، ولم يكن أفراد الجيش حين يدخلون خدمة السلطان مجبرين على اعتناق الدين الاسلامى ، ولكن أحيط قبول الدين بكل مظاهر الاكرام ، فلقد مهدت لمن يعتنقون الاسلام السبل للترقى المستمر وأبعدوا عن الوسط المسيحى ، وتربوا فى جو إسلامى بحت ، وبذا نسى هؤلاء تقاليدهم القديمة ، وأترفى ميولهم وعقليتهم الدين الجديد .

ومن أهم عناصر الجيش العثمانى فى عهد السلطان مراد الثانى و الفاتح فرقة الانكشارية ، فأفرادها كلهم من أصل رقيق مسيحى ، وترجع نشأة هذا النظام إلى عهد السلطان أرخان فلقد اقترح وذيره قره خليل خلق جيش جديد مكون من فتية مسيحيين و برر ذلك العمل كما تقول القصة

بأن سكان البلاد المفتوحة ملك للقاهرين هم وأزواجهم وأطفالهم وما ملكت أيديهم ، وهو عمل صالح بعد ذلك ، فهو يجعل من أبناء النصارى مسلمين ولقد دعا لهم الشيخ بكناش ببياض الوجود وقوة السواعد وحد السيوف وإصابة الهام وأن يكون النصر حليفتهم فى الحرب وسماهم بالعسكر الجديد .

هذا العسكر الجديد تدرب على أمور الحرب ، فأصبح أفراده مقاتلين من الطراز الأول وخصوصا عنيدين يقاتلون فى خط واحد كأنهم بنيان مرصوص . هذا الفريق تدرب أفراده جسميا أكثر مما تدربوا عقليا ، وقوتهم هذه جعلتهم مرهوبى الجانب يخشى بأسهم إذا غضبوا ، وكانوا عادة ينظمون فى أود أو أرط ولكل أرطة ضباطها وعلى رأس الضباط جميعا الأغا .

هؤلاء الجنود كانوا حرس السلطان الخاص يتبعه منهم فى كل مرتحل مائة وخمسون ، ومن يكبر فى السن من هؤلاء الجنود أو يصيبه الضعف أو الوهن يرسل إلى حراسة الحصون .

فنظام الحكم ونظام الجيش كما رأينا نظام تعليمى ، هو مدرسة للحياة بالحياة ، فيها التدريب ، وفيها التثقيف ، وفيها النظام الدقيق وفيها مستويات معينة يرقى فيها المتعلم .

وقام هذا النظام على مبدأ الجدارة والاستحقاق ، فالذى يرقى هو الذى يملك المواهب والمؤهلات الخاصة ويحسن استغلالها ، ويظهر كفاية ممتازة . وقام ذلك النظام على أساس مبدأ المكافأة فهو يجازى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وهو يهتم بكل مناحى التربية من عقلية وجسمية وروحية فيه تدريب للجسم وصقل للعقل وغرس لمبادىء دينية واجتماعية جديدة .

فبرجرام التعليم شامل ، وكما اهتم بالمتعلم اهتم بالمعلم ، فعنى باختيار المعلمين من مدرسين وضباط وعلماء ، ولا مكان فى ذلك النظام للضعيف أو الكسول أو البليد أو الخائن لأنه فى أول فرصة تظهر فيها سمة الخيانة أو الغدر عقابها الوحيد الرادع هو الاستئصال ، هو ضرب الرقاب .

وبجانب الانكشارية الجنود السباهية أو الفرسان ، وبجانبها أنواع أخرى من الجنود كالباشى بزق والأكنجى والغرب .

وكان يسود الجيش العثمانى النظام والهدوء ، ففى المعسكرات حين يأمر السلطان لا يتكلم الجنود إلا همساً ، ويمتاز ذلك الجيش بالطاعة والخضوع والصبر على المكاره وتحمل الجوع والظمأ وقطع المسافات الطوال ، كما يمتاز بخفة وسرعة حركاته ، فالحصان التركى كالحصان العربى خفيف وسريع ، بينما الجيوش الأوروبية فى ذلك الوقت تمتاز

يبطء حركاتها نظراً لثقل الملابس الحديدية التى يلبسها الدارعون ولثقل الفرس الأوروبى .

وشهد بتفوق الجيش العثمانى معاصرو الأتراك من أوربيين ومسيحيين فالحكومة العثمانية كانت فى الواقع كلها جيشاً قبل كل شىء فالأتراك جنس ولد للحرب ، وتوحد للحرب ، ونظم للحرب ، فالحرب كانت أهم وظيفة تقوم بها الحكومة .

فهى منظمة للدفاع عن نفسها داخل البلاد وخارجها. ولقد فاق اهتمامهم بالحرب أى دولة أخرى معاصرة لهم . وكان اهتمامهم بالمدفعية بالغاً ، وكذلك باقتباس كل المخترعات الحديثة فى الأسلحة وأدوات الحرب، وعنوا بكل الأمور المتصلة بالحرب من إعداد فرق خاصة بمسائل تموين الجنود وإعداد الطرق التى تمر فيها الجيوش ، وبنظام المعسكر ووسائل النقل والترفيه عن الجنود .

ويصف المعاصرون كثرة الأغذية والعتاد الحربى فى معسكرات الجنود وكذا دواب الحمل والنقل ، ولم تعن دولة لا فى أوربا ولا فى بقية أجزاء العالم فى ذلك الوقت مثلما عنى العثمانيون من ناحية إعداد الجنود وتدريبهم ونظامهم وغذاءهم وملبسهم ومكافأتهم .

لم يوجد فى نظام الحكم هذا شىء يعرف بالوراثة ، فكل الحقوق

والامتيازات التى ينالها الأفراد شخصية لا تورث من بعدهم ، فالنظام العثمانى الحاكم لا يعرف الوراثة ، ولا يعترف بغير الكفاية والجدارة الشخصية ، ومن هنا كان الباب مفتوحا أمام الكفايات ، ووجدت الهمم مايحفزها و يكافئها ، ولم تتركز القوه أو السلطة فى يد عائلة واحدة أو عائلات قليلة كما هى الحال فى البلاد الأوربية فلم تكن هناك ارستقراطية ثابتة متوارثة ، كما هى الحال عند المسيحية ، و إنما الارستقراطية الموجودة هى ارستقراطية للكفاية والجدارة والعلم . فالدولة فى عهدها الأول قوة يسيطر فيها السلاطين على كل شيء ورعيتهم كلها مستوى واحد هى رعية السلطان تتساوى أمامه ، و يرعى أفرادها بعنايته ، وأكد هذه المساواة الدين الاسلامى ، فهو يقول . بتساوى الناس جميعاً فلم يجد الأتراك غضاضة إذا رفع السلطان أضعفهم وأفقرهم إلى أعلى مراتب الدوله فهناك شعور عام بالمساواة بين رعايا السلطان .

وعناية الحكومة كما ذكرنا كانت موجهة إلى الدفاع عن نفسها داخل البلاد وخارجها ثم توسيع رقعة البلاد والعمل على زيادة عدد سكانها ، وذلك عن طريق الحرب فى دار الحرب ، وهنا تظهر قوة الدافع الدينى ، فقوة الدولة هى قوة الاسلام ، وفتوحات الدولة هى فتوحات الاسلام ، وهنا

تظهر أيضا قيمة الحرب فى ضمان رفاهية السلطان وتابعيه من هيئة الحكومة بما يحرز فى الحرب من غنائم وأسلاب .

ووظيفة هذه الحكومة بعد الاضطلاع بأمور الحرب وفنونها العمل على إنماء النظم التى تسير عليها ، وتنظيم الدولة والحصول على المواد اللازمة لقيام الحكومة و بقائها وفض المنازعات التى تنشأ بين رعايا الدولة والتى لا يستطيع نظام الملات (الذى سنتكلم عنه) الفصل فيها.

ومن أسباب قوة الدولة حياة البساطة التى كان يعيشها السلاطين الأول فلم يهتموا كثيراً بمظاهر الأبهة والمدنية كما اهتم قبلهم الفرس أو البيزنطيون أو كما اهتم بها السلاطين المتأخرون ، فكانوا حريصين على اتباع أوامر الدين ونواهيه ، وكانوا يذهبون إلى الصلاة فرادى فى ملابس عاديه لا يميزهم فى المساجد عن غيرهم من الافراد شىء إلى حد أن الاجانب ما كانوا يستطيعون التمييز بينهم و بين سائر الناس هذه البساطة كانت من مظاهر القوة إلى أن فتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية ، فلم يعد سلطان الاتراك سلطانا للأتراك فحسب ، بل أصبح بجانب ذلك خليفة للأمبراطور البيزنطى فبدأت تدخل الحكومة العثمانية مظاهر الأبهة والعظمة .

موقف أوربا إزاء سقوط القسطنطينية

لقد استولى الذعر على أوربا حين علمت بسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين ، هذه المدينة التى أسسها قسطنطين والتى قامت بحماية المسيحية .

قد يفترض بعض المؤرخين الأوربيين أنه لو اتفقت أوربا المسيحية فيما بينها وبعثت بالنجدة فى الموقف المناسب لربما تأخر سقوط القسطنطينيه بل ربما لم يستطع الأتراك الاستيلاء عليها كلية ولا تهديد وسط أوربا وقينا

وهذا افتراض لا يقوم على أساس صحيح فلقد كان للأتراك كما رأينا كل وسائل الانتصار فى ذلك الوقت : القيادة الممتازة والقوة الساحقة والعزم الصادق والمركز الأستراتيجى فكانت ممتلكاتهم تحيط بالعاصمة الأغريقية من كل مكان .

ثم إن الأتراك استطاعوا أن يقضوا قضاء عزيزا مقتدر على كل الدول القريبة من بيزنطة والتى ربما وقفت حجر عثرة فى سبيلهم ، لقد قضوا تماماً على قوة الصرب التى كانت تبشر بمستقبل كبير فى البلقان وقضوا على قوة البلغار ، وسيطروا على البلقان سيطرة لا ينافسهم فيها أحد ولم تستطع المجر القيام بأى خطة هجومية بعد موقعتى ورنه وقوصوة هاتين الموقعتين اللتين انهزمت فيهما المجر انهزاما ساحقاً .

وبعد ذلك ما كانت دول أوربا تستطيع أن توحد صفوفها ، وما

كانت تستطيع أيضاً أن تبعث بنجدة قوية فى الوقت المناسب لبعد المسافة وسوء وسائل المواصلات فى ذلك الوقت ، لا سيما وأنه قد ظهر لها أن ذلك الاتفاق وتوحيد الصفوف لو تم ما هو بمستطيع قهر الأتراك أو التغلب عليهم ، فقد سبق أن دمر الأتراك فوق هذه الاتفاقات تدميراً ذريعاً فى أكثر من موقف ، وما ذكريات نيقو بوليس الحزينة ببعيدة عن أذهان الأوربيين ، لقد دافع الأتراك عن مركزهم بنجاح أذهل ملوك أوربا وشعوبها ، وكانت نتيجة هذه الموقعة محزنة للمسيحيين بدرجة لم يعد معها من السهل استثارة الأوربيين من جديد لحرب مع المسيحيين .

ثم إن مثل هذه الحملات كانت تستلزم جمع المال الوفير للاستعداد للحرب ولتحرير أسراها بعد الحرب ، ولم يعد الأوربيون يطمئنون بسهولة إلى إنفاق أموالهم فى حملات غير مضمونة النتائج ولا مأمونة العواقب .

كانت موقعة نيقو بوليس كما يقول مؤرخها الدكتور عزيز سوريال عطيه انتهاء الحملات الصليبية كحركات مسيحية منظمة ضد الأتراك العثمانيين ، ولذا تعتبر هذه الموقعة فاصلة فى مصير الدولة البيزنطية وفى مصير عاصمتها مدينة القسطنطينية ،

ولكنه بالرغم من ذلك لم تكن البابوية زعيمة المسيحية لتنصرف

ألى البأس أو تخلد إلى السكون فهى ما كانت تسمح بقضاء المسلمين على الامبراطورية البيزنطية مهما كانت كارهة لأرثوذكسيتها ، فهى تخشى اعتداء العثمانيين على البلاد المجاورة لهم والتى تخضع للنفوذ البابوى الدينى فتحوت الفكرة الصليبية إذن من محاولة انتزاع الأراضى المقدسة من المسلمين إلى صراع دفاعى الغرض منه إنقاذ أوربا الكاثوليكية من الأتراك . لقد كان القيام بالحروب الصليبية سياسة البابوية الخارجية .

ولذا حاول البابا بيوس الثانى بكل ما أوتى من مقدرة خطابية ومهارة سياسية تأييد الفكرة الصليبية الجديدة وحاول توحيد أوربا ضد الأتراك وتركزت مجهوداته فى ناحيتين : حاول أولا أن يقنع الأتراك باعتناق الدين المسيحى ، ولم يقم بأرسال بعثات تبشيرية لذلك الغرض و إنما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان الفاتح يطلب منه أن يعضد المسيحية كما عضدها من قبله قسطنطين وكلوفيس وأن يكفر عن خطاياه باعتناق المسيحية مخلصاً . ولم يكن معقولا نجاح مثل هذه المحاوله .

ولما فشل البابا فى خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة وذلك عن طريق إقناع الدول المسيحية بتكوين حملة صليبية جديدة ضد الأتراك حملة برية وبحرية تبين للأتراك تماسك أوروبا وتضافرها على الأخذ بناصر المسيحية .

ولكن الدول الأوربية والجمهوريات الايطالية ما كانت لتقوم بتنفيذ مثل هذا المشروع بالرغم من الخطر الذى يهدد معظمها وبالرغم من أن فكرة القيام بحرب صليبية لا زالت مثلا من المثل العليا الأوربية. لقد وعدت بعض الدول فعلا بالاستعداد لتحقيق فكرة البابا ولكن لما جاء وقت الجد اعتذرت دول أوروبا بمتاعبها الداخلية ومشاغلها. لقد أنهكت حرب المائة سنة انجلترا وفرنسا وفوق ذلك فانجلترا منهمكة فى مشاغلها الدستورية وحروبها الأهليه ، ولم تكن حالة فرنسا الداخلية تسمح لها باشعال نار حرب مع الأتراك ، فلقد أضعفتها المنازعات الداخلية . وأما أسبانيا فهى لا تزال تناضل فى سبيل وحدتها القومية ضد المسلمين . وعلى أى حال كانت الفكرة العالمية المسيحية آخذة فى الزوال ؟ فكرة أمبراطورية مسيحية عامة ، وأخذت تحل محلها بالتدريج فكرة القومية .

وأما الجمهوريات الايطالية فكانت تهتم بتوطيد علاقاتها مع الأتراك أكثر من اهتمامها بالدخول معهم فى حرب صليبية وأخذت صحة البابا فى الاضمحلال وسرعان مامات وانتهى مشروع الحملة الصليبية بموت صاحبها ، وترك المجر والبندقية منفردين مهمة وقف الأتراك والدفاع عن حدود المسيحية .

وكيف تستطيع أوربا إنقاذ القسطنطينية والحرب فيها مستعرة بين شعب وشعب ، بين بابا روما و بابا افينيون، و بين مجمع دينى ومجمع دينى آخر . لقد اتفقت الملكيات الأوربية والجمهوريات الايطالية فى لودى على الاتحاد ضد الأتراك فى سنة ١٤٥٤ ولكن ذلك الاتفاق لم يقف أمام تجارب الزمن فلقد انفصلت البندقية عن الاتحاد وعقدت معاهدة صداقة مع الاتراك وحسن جوار رعاية لمصالحها فى الشرق الأدنى وقامت الحرب على قدم وساق فى شبه جزيرة إيطاليا واهتم الكاثوليك باضطهاد اتباع يوحنا هوس أكثر من اهتمامهم بمحاربة الأتراك المسلمين .

* * *

كان سقوط القسطنطينية يمثل انتهاء حقبة من الدهر ، فلقد قضى على الدولة البيزنطية التى عاشت حول أحد عشر قرنا من الزمان وأزال منافساً خطيرا للدولة الرومانية المقدسة فى الغرب ، وتضى على حضارة بيزنطة المسيحية وعلى المثل والمبادئ التى كانت رمزاً لها .

وتمثل كنيسة أيا صوفيا العظيمة التطور الدينى الذى حدث فلقد أصبحت مسجداً جامعاً للمسلمين ، وحل هلال بيزنطة القديم محل الصليب ، واستطاع الاتراك أن يمدوا سلطانهم بعد ذلك إلى بلغراد

والدانوب وما يسمى حالياً رومانيا ، أصبح إذن غربى آسيا فى قبضة الاتراك وكذا جنوب شرق أوربا فكانت الدولة العثمانية خطراً دائماً على أوربا مهدداً لكيانها وحياتها ، فلقد كانت قوة الأتراك الحربية لا نظير لها ، وما كانت أوربا التى ذهبت وحدتها التستطيع الوقوف أمامهم.

فى القسطنطينية وفى البوسفور والدردنيل وضع الأتراك أقدامهم فى مركز استراتيجى مهم سيجعل تقدم روسيا أو نمو النمسا من ناحية الشرق أمراً مستحيلا لمدة تقرب من الخمسة قرون ، امتلكوا أجزاء من العالم تسيطر على أوروبا وآسيا وأفريقية كما سيطروا على معظم طرق المواصلات البرية والبحرية المهمة بين الشرق والغرب .

وتعتبر أوربا بانتبيت أقدامهم فى ذلك الجزء من العالم كارثة لا تماثلها كارثة ، ففى سنة ١٤٥٣ ولدت المسألة الشرقية التى شغلت أوروبا إلى الوقت الحاضر ولاتزال تشغلها . كيف تستطيع أوربا وقف تقدم الإسلام فى أوربا ؟ ثم لما عاد الاسلام يتراجع من هذه الديار كيف تعمل أوربا على توزيع ممتلكاته ، ما كانت أوربا تحير لهذه الأسئلة جوابا نهائياً .

فتوح الفـــاتح الأخرى

فتح بلاد الأغريق :

لقد استولى السلطان محمد الثانى على القسطنطينية وسنه لاتزيد على ثلاثة وعشرين عاما ، فكان أكبر من المقدونى بسنة واحدة فى الوقت الذى فاز فيه بانتصاره الباهر على الفرس فى موقعة جرانيكوس وكان أصغر من القائد العظيم نابليون بونابرت بثلاث سنوات حين قاد الفرنسين إلى النصر ضد النمسا فى موقعة لودى فى سهل لمبارديا بأيطاليا

على أن السلطان الفاتح لم يهدأ له روع ، ولم يخلد إلى السكينة بعد ذلك الفتح العظيم ، فهو ابن الحرب ، نشأ فى ميادينها ونبغ فيها ، وقضى بقية حياته يستعد لها أو يخوض غمارها . وكانت الظروف السياسية فى البلقان ترغمه على السير فى فتوحاته ، فكان عليه أن ينظف البلقان وشبه الجزيرة اليونانية من بقايا الدولة البيزنطية الغابرة ، ومن المستبدين البيزنطيين ، والمغامرين الأيطاليين . لقد كانت هناك إمارات أو دوقيات مشتتة مبعثرة بعيدة عن بعضها ، لم تحاول قط جمع قواتها

لمواجهة الخطر العثمانى الجارف ، ولم تستفد شيئاً من الدرس القاسى الذى خبرته بيزنطه ومدينة قسطنطين الأكبر .

لقد كان البنادقة فى أوائل القرن الخامس عشر يسيطرون على معظم البلوبونيز وأبيروس وعدد كبير من جزر بحر الأرجنيل وجزيرة كريت . وسقطت أجزاء من شبه جزيرة المورة فى يد الفرنسيين . ولكن جمهورية البندقية كانت متمسكة بالأشراف على السواحل ، وتركت السيطرة على جزر بحر الأرجنيل لأفراد منها مغامرين .

وكانت الفوضى فى هذه الأجزاء جميعها منعدمة النظير ، فقامت الحروب والثورات والمنازعات الداخلية التى لا تنقطع بين الكتلان (من الاسبان) وبين الأيطاليين والفرنسيين ، وكان فى آخر الأمر أن أخلى العنصر الفرنسى السبيل أمام العنصر الأيطالى ، كما حل محل الكتلان الأيطاليون عن طريق الفتح أو الشراء أو اقراض المال . وتدخل الأتراك أنفسهم فيما بين هؤلاء الأمراء ينصرون فريقا على فريق ، ثم يأخذون فى آخر الأمر ممتلكات الفريقين إذا وجدوا ذلك أمرا هينا أو إذا ضعف الفريقان أمام قوتهم .

لقد كثرت فى البلقان وشبه الجزيرة اليونانية الهجرة وانتقال السكان من مكان إلى مكان ، وحلت عناصر وجنسيات محل أخرى أو طغت عليها

فظهر الألبانيون والأفلاقيون ، واستقروا فى جاليات قوية فى معظم أجزاء البلقان، وحوصرت المدن وفتحت أو تركت ، وسكنت أو خربت

ولم يكن السلطان محمد الفاتح هو أول من غزا هذه البلاد ، فلقد غزاها من قبله عدد من السلاطين ، غزاها السلطان بايزيد الأول ، ثم السلطان مراد الثانى ، بعث إليها من قواده من استطاع اكتساحها من أقصاها إلى أقصاها ، ولكن العثمانيين لم يثبتوا أقدامهم فيها نهائيا إلا فى عهد الفاتح .

كان من أكبر الأمارات الأغريقية إمارة أثينا ، وكانت فوضى الحكم فيها على أشدها ، فلقد مات دوقها وخلف الحكم لزوجته وابنه ، فأما زوجته فلقد جعلت من عرش الأمارة فراش غرام ، فأحبت أحد الدوقات الآخرين ولم تقبل الزواج منه إلا إذا طاق زوجته الأصلية وأهلكها ، وفعلا تم لها ما أرادت ، وذهب الساخطون على ذلك السلوك إلى السلطان يطلبون منه النجدة والتدخل ، فأرسل لهم دوقا آخر لم يفترحتى قتل الدوقة المولعة بالغرام ، وقامت فوضى لم يرض معها السلطان الفاتح إلا أن يرسل قائده عمر بن طرخان لاحتلال أثينا ونشر الأمن والنظام فى هذه الأرجاء وحماية هؤلاء الطغاة والمستبدين من أنفسهم .

وظهر السلطان محمد الثانى فى أراضى الأغريق كالحكم القوى العادل الذى يقبله الجميع ، ويخضع له الجميع راضين . لقد وصل إلى بلاد الموره فى سنة ١٤٥٨ لكى يعطى الطغاة والمستبدين الأغريق واللاتين درسا قاسيا فى فن السياسة والحكم ، فاستولى على حصونهم ، وقضى على محبى الفوضى قضاء عزيز مقتدر ، وفتحت القساوسة أبواب مدنهم له ، وتلقوه بالترحاب حتى يحظوا بحمايته ، ويطمئنو إلى رعايته . ثم زار مدينة أثينا وها له جمال آثارها القديمة ، فمكث فيها مليا . وفى السنتين اللتين تلتا سنة ١٤٥٨ تمكن من إخضاع شبه جزيرة الأغريق إخضاعا تاما فأصبحت جزءا من الامبراطورية العثمانية إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر

* * *

إخضاع الصرب :

أما مع أمراء البلقان وخاصة الصرب ، فكانت سياسة السلطان محمد الثانى قبل فتح القسطنطينية هى توثيق علاقات الود والصداقة بهم والعمل على كسب رضاهم حتى ينتهى من مهمته العظيمة ، وحينئذ يستطيع إخضاعهم الواحد تلو الآخر . كان يعرف أن الصرب الشمالية

بصفة خاصة الصرب التى يحكمها برانكوفتش مذبذبة بين الأتراك والمجريين تحالف هذا الفريق حينا ، وتدفع عنها بالمال حيناً خطر الفريق الآخر .

ولذا نجد السلطان محمدا يعترف بالمعاهدة التى عقدها السلطان مراد الثانى مع إمارة الصرب الشمالية ، هذه المعاهدة التى لا تفرض على هذه البلاد الأجزية السنوية تدفعها للدولة وتمتع فى نظيرها بالاستقلال التام فى أمورها الداخلية ، كما أرسل إحدى زوجات أبيه السلطانات وهى صربية ، إلى بلادها محاطة بكل مظاهر الحفاوة والاكرام ، وأجرى عليها النفقات الكثيرة .

وكان هدف السلطان من وراء ذلك منع برانكوفتش الأمير الصربى من الاتفاق مع المجريين على نقض الهدنة التى عقدها السلطان معهم أثناء حصار القسطنطينية ، وفعلا تم له ما أراد .

فوفى برانكوفتش بما عاهد عليه السلطان ، كما لم يقم بأى مساعدة للقسطنطينية وقت محنتها ، هذه المدنية التى اشترك بنفسه فى تجديد أسوارها وتحصيناتها . بل وأرسل رسله للسلطان يهنئونه بهذا الفتح العظيم ويقدمون له الجزية . ولكن السلطان كان قد قرر إخضاع هذه البلاد نهائياً للحكم العثمانى . فالصرب بلاد زراعية ، غنية بالمعادن

وخاصة الفضة و بمراعيها الجيدة ومدنها المزدهرة ، ثم بعد ذلك أصبح يرى أن ضم الصرب أمر لا محيص منه لمهاجمة الأفلاق والمجر .

ولذا قام السلطان محمد الثانى الفاتح بقوة كبيرة إلى بلغراد للقضاء نهائياً على الصرب ، ولتهديد المجر فى وقت واحد . ولكن إذا كان السلطان لم يفلح فى الإستيلاء على مدينة بلغراد إلا أن خصمه العنيد هونيادى مات بعد وقت قصير ، وقُرر مصير برانكو فتش والصرب نهائياً . فلقد أسر ذلك الأمير وسجن ، وترك الامارة لزوجته إيرين وابنه فقام النزاع بينهما إلى درجة أن الإبن رفض أن يفتدى أباه من الأسر ، ثم ماتت إيرين ، ودفع ابن برانكوفتش الجزية ، ولكنه لم يكن مخلصاً لا لرعاياه ولا للسلطان ! ثم فارق الحياة ، فقام نزاع شديد على تولى الإمارة ، وقرر السلطان وضع حد لهذه الفوضى فضم الصرب إلى الدولة نهائيا فى سنة ١٤٥٩ ، فأصبحت مجرد بشاليق ، تركى ، وانتهى بذلك تاريخ آخر إمارة صربية فى العصور الوسطى ، وظلت الصرب هكذا جزءاً لا ينقسم من الدولة العثمانية إلى أوائل القرن التاسع عشر حتى أيقظتها الثورة الفرنسية وحروب نابليون إلى طلب الحكم الذاتى والاستقلال .

العلاقات العثمانية المجرية فى عهد محمد الفاتح :

كانت المجر مجاورة للدولة العثمانية من الجهة الشمالية الغربية وكانت أقوى دولة مسيحية فى وسط أوربا من الناحية الحربية فالشعب المجرى ظل محتفظاً كالأتراك بحيويته ونشاطه وقوته وكان ملوكه يعتبرون أنفسهم زعماء المسيحية ، وأصبحت المسيحيه تعتمد على المجر إلى حد كبير فى وقف تقدم الاتراك إلى وسط أوربا .

ولكن هذه الدولة القوية لم تكن متفرغة تماما لهذه المهمة الخطيرة، فلقد كانت دائما مهتمة بمد نفوذها على ساحل البحر الادرياتى مما دعا إلى اصطدامها بجمهورية البندقية ، ثم من ناحية ثانية كانت حكومة المجر قد وجهت عنايتها إلى القضاء على المنقسمين على الكنيسة الكاثوليكية فكانت تعمل جادة على فرض نفوذها على الصربيين المجاورين لها حتى تستطيع أن تدخلهم فى حظيرة الكثلكة وتخرجهم من الأرثوذكسية ، وكرس الأمبراطور لوى حياته لخدمة ذلك الغرض ولم يقم بمساعدة الأمبراطور البيزنطى باليولوجوس نظراً للاختلاف المذهبى، فأعطى العثمانيين فرصة لوضع أقدامهم فى أوربا .

ثم انشغلت المجر بمنازعاتها مع بولونيا ونضالها ضد التتار ، ولقد حاول ملوك أنجو الذى حكموا المجر على عهد العثمانيين الاوائل إدخال

العادات الغربية فخبرت هذه البلاد فوق مشاكلها الخارجية نضالا داخلياً بين النظم المجرية الاصلية والنظم الغربية كما شغلت بمسائل النزاع على العرش ، وأخيراً اختار الديت المجرى الامير سجسمند ، ولكن عهده لم يكن عهد استقرار أو اطمئنان ، فقامت الثورات فى أوائل عهده وأخذ الترك يغيرون على حدود بلاده وخاصة بعد أن سقطت الصرب . كان على المجر أن تتخذ فى أول الامر ضد الاتراك خطة الدفاع ولكنها عادت فرأت أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، ولكن قوتها الحربية لم تكن تستطيع وحدها الوقوف أمام قوة الاتراك ، ولذا طلبت النجدة من ألمانيا وفرنسا ، ووجدت هاتان الدولتان تعززهما البابويه ضرورة تعضيد هذه الدولة التى يقع عليها عبء المحافظة على أبواب أوربا الوسطى ، وكانت نتيجة هذا الاتفاق موقعة نيكوبوليس فى سنة ١٣٩٦ فى هذه الموقعة قضى الاتراك على زهرة فرسان المانيا وفرنسا والمجر ، وأصبح الترك سادة الدانوب الأدنى ، وهرب سجسمند ولولا مساعدة البندقية له على الهرب لوقع فى يد الأتراك وهلك .

كان سجسمند من غلاظ القلوب عاش حزينا محتاجا مضطهدا ، ولم يكن محبوباً من شعبه فقامت ضده المؤامرات والثورات وقبض عليه وسجن ثم أطلق سراحه فعاد إلى العرش ، ولسوء حظ المجر انتخب

ذلك الملك البائس فى سنة ١٤١١ امبراطوراً لألمانيا ، فلم يعد المجر كيان مستقل كامل وأصبحت مصالحها جزءاً من مصالح العالم الألمانى وزادت مشاكلها وثارت المنازعات من جديد بين المجر وجارتها البندقية خسرت فيها المجر دلماشيا .

ثم تعقدت المهزلة فاختير سجسمند ملكا لبوهيميا فتجمعت ثلاثة تيجان على رأس شخص يتوء تحت عبء تاج واحد ولا يحسن التصرف فى أمور مملكة واحدة .

وزادت مشاغل سجسمند وكثر اضطراب الامور عليه حين حاول القضاء على أتباع مذهب حنا هوس ، وكانوا كثيرين فى المجر لانهم نادوا بالمساواة بين الناس و بأن الملكيه يجب أن تكون عامة .

و بالرغم من كل هذه المشاغل والمشاكل كانت المجر دولة قوية أولا لأن سجسمند اهتم بتحصين الحدود الجنوبية الملاصقة للاتراك وجعل مدينة بلغراد عند ملتقى الدانوب بالسافا حصنا منيعا من الطراز الأول . ثانيا عملت النظم المجرية على وجود جيش دائم قوى يجتمع وقت الحاجة ، ثالثا اهتمت الحكومة بأنشاء أساطيل نهرية قوية فى نهر الدانوب لحماية الحدود الجنوبية . رابعاً تجمع النبلاء حول هونيادى

وقبلوا زعامته مخلصين له الطاعة وأخيراً هاجر عدد كبير من الصربين الأشداء إلى بلاد المجر وخدموا فى الجيش المجرى .

ومن أجل ذلك كانت المجر قادرة على الوقوف أمام العثمانيين مدة طويلة فى الوقت الذى لم يستطع فيه الأغريق والصرب والبلغار تحمل ضربات الاتراك القوية ، ولكنها بصفة عامة لم تستطع بنجاح اتخاذ خطة الهجوم ضد الاتراك وتحملت الفشل المرير ، حتى فى أوج عظمة زعيمها القدير جانوس هونيادى الذى سجله التاريخ كأكبر عدو للأتراك وأعظم وأقدر خصم قابلهم وجها لوجه فى ميدان القتال .

تحت زعامة جانوس هونيادى ارتفعت المجر إلى مركز المدافع عن المسيحية أمام قوة الاتراك الجارفة ، لقد كان هونيادى من الشبان الافلاقيين البارزين الارستقراطين الذين دخلوا فى خدمة سجسمند فأعجب بمقدرته أيما إعجاب ، ورقاه فى بلاطه وافترض الاموال منه ومنحه إقطاعات على الحدود المجرية العثمانية الامر الذى جعل لذلك الرجل مصلحة دائمة فى مناضلة الدولة العثمانية ودفعها عن الاراضى المجرية والواقع أن الحرب التى كانت سجالا بين المجر والاتراك قامت على أكتاف ذلك البطل .

لقد كان هو نيادى رمز الفروسية المسيحية فى ذلك الوقت و بطلا من أعظم أبطال المجر وزعيما كبيرا من زعماء المسيحية عرف كيف ينظم الجيوش وعظم اهتمامه بفن الحرب مواقعها وأماكنها وحركاتها أكثر مما اعتمد على الشجاعة وحدها أو الحماس الحربى ، وهو رجل تحت المتوسط فى الطول ابيض الشعر له ضفائر طويلة فضية ووجه ممتلىء بالدم والحيوية وعيون سوداء قوية مبتسمه ، لقد كان فارس الافلاق الابيض — كما كان يطلق عليه — حضم الاتراك العنيد فى ميدان الحرب وميدان السياسة .

لقد استطاع هذا الزعيم المجرى فى موقعة سمندريا أن يخلص الصرب من الحكم العثمانى وهزم العثمانيين مرار الى درجة أن اضطر السلطان مراد الثانى والد الفاتح وكان كبير الميل إلى السلم — اضطر أن يطلب عقد صلح معه لمدة عشر سنوات لمصلحة المسيحيين دون ريب .

وكانت زعامة هونيادى فى المجر تامة حين ورث العرش بعد سجسمند طفل لازال فى المهد صبيا ، ولكن سلطته عادت فضعفت حين اختير فلاديسلاف ملكا للمجر ، فلم يستمع الملك الجديد لنصيحة هونيادى وحنث فى عهده للاتراك واعفاه مندوب البابا من اتفاقه مع مراد الذى كان قد أخلد إلى حياة الراحة والهدوء فاضطر السلطان

العثمانى إلى معاودة الحرب من جديد وقاتل بعنف قوة المجرين فى موقعة ورنه وقتل جنوده الملك المجرى وحملوا رأسه على رمح ، ولم ينج هونيادى نفسه من الموقعة إلا بكل صعوبة وفى نفر قليل .

قتل ملك المجر إذن فى ميدان القتال وقرر مجلس الدولة المجرى قيام حكومة مؤقتة على رأسها هونيادى ، وحاول هونيادى الانتقام لشرف المجر المنهار فى ورنه ، ولكن فى مكان موقعة قوصوه حيث قضى السلطان مراد الاول على قوة الصرب ، قابل مراد الثانى قوة المجريين وقضى عليها فى سنة ١٤٤٨ ، فلم تجرؤ المجر على اتخاذ خطة الهجوم ضد العثمانيين أو تفكر جديا فى الانتقام مرة ثانيه ، وظلت الحال على ذلك إلى أن جاء السلطان محمد الثانى .

لم تؤثر موقعة قوصوة التى هزم فيها هونيادى فى مركزه أو تعلق الشعب المجرى به أو التفافه حوله ، بل جعلت ذلك الشعب ينظر إليه كالشخصية الوحيدة التى تستطيع انقاذ المجريين من الاتراك إذا حاولوا الاعتداء عليها ، وشغل هونيادى بمشاغل عديدة داخلية وأخرى خارجية ، أهمها صلات المجر مع النمسا وبوهيميا ، وهزم هونيادى أمام أعدائه النشاء ولذا قبل الزعيم المجرى رانيا الهدنة التى عرضها عليه السلطان محمد الثانى .

ولما سقطت القسطنطينية فى يد الاتراك اجتمع الديت المجرى فى بودا وقرر إعداد النفقات اللازمة فى حالة هجوم الأتراك العثمانيين على البلاد . واستنجد برانكو فتش الصربى بالمجر وقامت حركة صليبية تدعو المجر إلى مقاومة العثمانيين ، ولكنه لم يكن للمجر حلفاء تستطيع الاعتماد عليهم ، وكان مركز هونيادى نفسه آخذا فى التزعزع فله فى البلاط منافسون حاقدون عليه ، ولم تكن الملكية براضية عنه ، فلم تكن الدولة المجرية إذن فى مركز يسمح لها بالهجوم على الأتراك .

ولكن الأتراك لم ينتظروا هجوم المجريين بل قاموا هم بالهجوم ، لقد زحف السلطان محمد الثانى الفاتح على بلغراد ، مدينة الجهاد فى نظر الأتراك فى سنة ١٤٥٦ بقوة كبيرة ومدفعية ضخمة ، وكانت بلغراد فى ذلك الوقت تعتبر مفتاح بلاد المجر ، وبذل هونيادى كل ما يملك من قوة وحماس وصبر وحذر فى سبيل الدفاع عن هذه المدن ، ولقد أيدته أوربا تأييدا عظيما فسقوط المجر فى ذلك الوقت معناه سقوط وسط أوربا بأجمعه فى أيدى الأتراك ، ولهذا هرع لنجدته ستون ألف صليبى بقيادة الراهب كابستران ، وناداهم البابا فلبوا نداءه فلقد ملأ فتح القسطنطينية أوربا بالعار والغضب والخوف .

وكانت ظروف بلغراد غير ظروف القسطنطينية ، فوراء بلغراد العالم المسيحى متحفز للوقوف أمام الأتراك والدفاع عن مسيحية وتقاليده وما يملك . ومن ناحية ثانية حارب العثمانيون أمام بلغراد فى منطقة لم يملكوها هم كلها معادية لهم ، ومن ناحية ثالثة طالت خطوط المواصلات والتموين ، بينما كان المجريون يحاربون فى بلادهم ، ويظهر أن الأتراك فى هذه المرة أصابهم بعض الغرور بانتصارهم الحاسم على البوسفور وحملوا معهم مدفعية ثقيلة عاقت سرعة حركاتهم ، وانهزم أسطولهم الهندى انهزاما حاسما أمام اسطول المجريين .

كانت الموقعة فى أول الأمر فى مصلحة العثمانيين ، فلقد تمكنت المدفعية العثمانية المتفوقة من تحطيم أسوار المدينة ، وتمكنت بعض فرق الأنكشارية من دخول بلغراد ، وظن العثمانيون أن الموقعة قد انتهت بينما كانت المدينة ملأى بالجنود توجههم قيادة ممتازة ، ولذا اضطر الأتراك إلى الانسحاب من الجزء الذى احتلوه وحاول السلطان إقناع جنوده بالثبات ، وحارب فى صفوفهم بنفسه ، وقتل بيده أحد زعماء الصليبيين ، ولكنه اضطر فى آخر الأمر إلى الانسحاب بعد أن تمكن من تنظيم التقهقر . وبعد قتل من الانكشارية العدد الكبير .

ولكن السلطان كان سعيد الطالع فلقد تمكن من التقهقر ومن إعادة تنظيم قواته ، ومن مدافعة أعدائه بعنف بحيث لم يستطيعوا تتبعه ، ومن ناحية أخرى مات هونيادى بعد عشرين يوما من الموقعة كما مات زعيم الصليبيين جون كابستران الذى جاء لنجدة المجر .

وبموت هو ينادى أنتهى أقوى عدد الأتراك والمسلمين ، فبموته كما يقول البابا سافيوس « ماتت آمالنا » ، ولقوا بنه معاصروه ، ووصفوا شجاعته وقدرته وقيمته للمسيحية فى ذلك الوقت الخطر ، فلقد قام هذا الرجل بحماية المجر بل وحماية المانيا من الفتح العثمانى كما أقر مشاريع محمد الفاتح بالنسبة لأيطاليا .

لم تكن موقعة بلغراد بعظيمة الخطر على مركز العثمانيين فى أوربا وإن كانت قد أنقذت مدينه بلغراد والمجر من أن تقع فى أيديهم مدة من الزمن ، ولكنها لم تمنع العثمانيين من نشر نفوذهم فى بقيه أجزاء البلقان فى البوسنة والهرسك والصرب وألبانيا ، فما كانت المجر التى ذاقت قوة العثمانيين مراراً تجرؤا أبدا على اتخاذ خطة الهجوم ضد السلطان الفاتح فنشاطها استنفذ من ناحية ، ومن ناحية ثانية هلك أكبر رجالها الحربيين الذى تستطيع أن تثق فيه وأن تضع مقاليد أمورها بين يديه .

وبعد ذلك فملكها كان لايزال حديث السن لا يحسن التصرف فى أمور الملك ، ولم يوجد بين الاستقراطية المجرية من يقوم مقام هو ينادى ، بل لقد قابل الملك أعمال الزعيم الراحل بالجحود والنكران فلقد أمر بقتل أبنه وتشويه سمعته وتصوير خيانته وصب عليه اللعنات

ولكن الملك المجرى لم يعش طويلا فمات فى سنة ١٤٥٨ ، وشاءت الأيام أن تعترف المجر بجميل فارسها ، فقرر الديب المجرى يقين أبنه وهو ما تياس كورفينوس ملكا على المجر .

ولئن كان ما تياش ورث عن أبيه فروسيته وقدرته على قيادة الرجال إلا أنه لم يرث عداوته الأتراك . وكان مهتما بالأمور الداخلية . مهتما بالقضاء على ثورات من حاولوا منافسته ، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً أمام قوة الأتراك ، فلقد قام السلطان محمد الفاتح بالهجوم من ثانية فافتتح البوسته وثبت أقدامه فيها رغم أنف المجر ، وحاول ماتياس أن يضم البابا والبندقية إلى جانبه فلم يفلح ، ولما اقترح ملك فرنسا تكوين عصبة دول مسيحية ضد الأتراك رفض كورفينوس الانضمام ، لأنه كان موقنا أن الحرب ستكون على حساب المجر وحدها .

ومن الغريب ان ما تياس لم يهتم بأخطار التركى بقدر ما اهتم بالقضاء على حركة هوس فى بوهيميا ، فهو كاثوليكى متعصب قبل كل

شيء وشغلته نزاعاته مع الامبراطور الذى حاول التدخل فى شئون المجر الداخلية كما شغلته اختلافاته مع بوهيميا .

ولقد هاجم الأتراك فعلا جنوب المجر ، وعاونوا الثائرين على ما تياس ولكنهم أجلو هجومهم النهائى عليها إلى عهد السلطان سليمان القانونى الذى سيقضى على قوة المجر ودولتها نهائيا فى موقعة موهاكز فى آخر الربع الأول للقرن السادس عشر .

فتح البوسنة : —

اما مملكة البوسنة فلم يقدر لها البقاء كأمة مستقرد بعد اختفاء العرب إلا اربع سنوات . فلقد مت فيها المنازعات على العرش ، وثارت الحرب الاهلية ؛ وعم الخوف على مصير البلاد أمام قوة الاتراك المرابطة على الحدود والتى تتدخل فى امور البلاد من حين لآخر وتجبرها على دفع الجزية ؛ واضطرت البابوية فى ذلك الوقت ، وكانت ملاذا للمسيحية وملجأها الأخير ، اضطرت إلى التدخل فى سبيل تثبيت العرش ؛ بعد ان زار ملك البوسنة ، وانهم يعاملون سكان البلاد بالحسنى لينالوا ودهم ورضاهم وانهم يعدون الفلاحين (وكانوا رقيقاً للأرض) بالحرية ، وان مطلب السلطان الفاتح ليس هو البوسنه و إنما هو المجر والبندقية ثم الزحف على إيطاليا واكتساح رومه عاصمة المسيحية الباقية . كانت هذه الزيارة فى سنة ١٤٦١ .

حاولت البابوية تثبيت مركز ذلك الملك ، كما حاولت معاونته لدرأ الخطر العثمانى الذى يهدد استقلال بلاده ، وعلم السلطان الفاتح بما بينه ذلك الملك من نقض عهوده مع الدولة العثمانية وعزمه على منع إرسال الجزية .

ولذا فأرسل إليه يطالبه بدفع الجزية ، وشعر ملك البوسنة بقوة فى نفسه فالبابوبية تؤيده . ولم يكن يدرى أن البابوية لن تستطيع له نفعاً إذا ما دهمته جحافل الأتراك ، أخذ ملك البوسنة الرسول العثمانى فأراه كنوزه وبين له باحتقار أنه لا يستطيع التنازل عنها للأتراك .

فقرر فاتح القسطنطينية معاقبة البوسنة على عدم وفائها بتعهداتها ، وفى سنة ١٤٦٣ جهز جيشاً عظيما . لذلك الغرض ، وعلم ملك البوسنة بما وقع ، فناله الفزع وأرسل للسلطان فى آخر لحظة ينفذ أوامره ، ويطلب منه هدنة لمدة خمسة عشر عاما ، فقبل السلطان ذلك العرض ، ولكنه صمم سراً على ضم البوسنة نهائياً إلى الدولة .

ولذا بعد ارتحال رسل البوسنة بأربعة أيام سار السلطان بجيوشه بسرعة هائلة وأخذ البوسنة على غرة فلم يقف أمامه دفاع ، وفتحت العاصمة أبوابها له ، وجز السلطان حاكمها على خيانته لوطنه بأن ألقى به من شاهق صخرة لا تزال تحمل إسم (راداك) إلى اليوم .

وأما ملك البوسنة فلم يجد بدا من التسليم وساعد السلطان على إتمام عثمانيا وأما ملكها فلقد عاقبه السلطان بالاعدام وضرب أعناق أبنائه ! وكان قد أمن على نفسه ، ولكن مفتى الدولة أفتى بضرب عنقه لأنه غدر بالسلطان فلا أمان له واستشهد بالحديث الشريف لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين .

وسقطت الهرسك بعد البوسنة ، فالقصة السائدة فى البلقان كانت قصتها قصة التنازع على الملك والاختلاف ، ولذا اضطرت إلى دفع الجزية للسلطان ، وثم منحتها نهائياً فى عهد ابن الفاتح السلطان بايزيد الثانى ولقد كان لفتح البوسنة أهمية خاصة ، فلقد اعتنق نقلاؤها وارستقراطيتها الدين الإسلامى وأصبحو بكوات يحكمون إقطاعاتهم على الطريقة السائدة فى الغرب فى العصور الوسطى.

فتح البانيا : —

بعد البوسنة جاء دور البانيا ، والألبانيون أقدم جنس فى البلقان وخضعوا للدول التى سيطرت على البلقان خضوعاً تختلف درجته . وفى القرن الرابع عشر خضعوا للأمبراطور العربى ، ولكن بعد سقوط امبراطورية العرب انقسموا كعادتهم إلى قبائل متنافسة متنافرة لا تعترف لشخص واحد بسلطة ! ولا تحترم غير نظمها الخاصة وتقاليدها التى أملتها عليها طبيعة البلاد الجبلية .

وفى أوائل القرن الخامس عشر كان ينتظر البانيا مصيران إما الخضوع لجمهورية البندقية أو الخضوع للأتراك . ولقد كانت جمهورية البندقية تتوسع فى البحر الأدرياتى بينما كان الأتراك يتوسعون فى البلقان فوقعت البانيا بين خطرين عظيمين . ولقد استولت البندقية بالتدريج على الأجزاء الساحلية ، وتم لها ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر تقريباً . وأصبح البحر الأدرياتى بذلك بحيرة إلى حد كبير بندقية .

ولم يكن من مصلحة البندقية ، وهى دولة بحرية ، أن تتوغل فى داخل البانيا ، فى داخل بلاد مقفرة جبلية ، سكانها أقوياء أشداء ولكنها استخدمت أموالها فى سبيل إثارة القبائل الداخلة على الأتراك ولكن هذه السياسة وإن نفعت وقتا ما فلم تنته إلى نجاح ، فبالرغم من شجاعة القبائل ومناعة بلادها ما كانت تستطيع الصمود أمام قوة الاتراك مدة طويلة .

وفى أوئل القرن الخامس عشر بدأ الاتراك فتوحهم فى البانيا ، وكان من بين ما أخذوا كضمانات جورج كابستردنا ، وكان لايزال حديث السن فأكرموا وفاته وعلموه الدين الاسلامى فاعتنقه ، وسموه اسكندر وأعطوه لقب بك فصارا سكندر بك .

خدم اسكندر بك فى الجيش العثمانى وبرز فيه ، حارب ضد الصرب والبنادقة ، وأظهر شجاعة ممتازة . وبينما كان يخدم فى الجيش الذى استخدم ضد المجر فى سنة ١٤٤٣ علم بقيادة ثورة فى البانيا ، وهرب من العثمانيين إلى أحد الحصون الالبانية ، وتنصر ثانية ، وأعلن حربا صليبية على الأتراك ، وساعدته على النجاح طبيعة الجبال التى كان محتميا بها .

أصبح اسكندر بك من أقوى خصوم الأتراك ، ومن أشدهم حقدا ، وهو يشبه فى هذه الناحية هونيادى المجرى كما يشبهه فى ذكائه العسكرى ومقدرته على قيادة الرجال ، وأصبح مثله زعيما قوميا . كان اسكندر بك الزعيم الوطنى الالبانى الوحيد . لقد التف حوله الزعماء الالبانيون كما التف الزعماء المجريون حول هونيادى . ولقد أيدته فى خصومة للأتراك دولة البندقية ودولة نابلى .

لقد حارب اسكندر بك العثمانيين مرارا وهزمهم ومنعهم من أن يسيطروا على البانيا سيطرة تامة ، ولكنه لم يستطع اتخاذ خطة الهجوم أو محاربة العثمانيين فى السهول .

ولكن السلطان محمد الفاتح ما كان يستطيع أن يقبل تفرق اسكندر بك فى البانيا ، فحاول أن يستفيد من الحزازات الموجودة بين الزعماء

الالبانيين ، وهزمهم هم وحلفاؤهم من نابلى . ولكن اسكندر بك بدأ في إثارة الالبانيين ، وعقد صلحا مع الاتراك ثم نقضه لأن البابا وعده بالمساعدة فحارب الاتراك إلى أن اضطر إلى أن يرحل إلى روما يطلب المساعدة والعون ، ولكنه مات فى أوائل سنة ١٤٦٨ وبذا استطاع الأتراك أن يخضعوا بقية البانيا بسهولة .

لقد كلف اسكندر بك الأتراك غاليا فى الفتح ، وإذا كان قد نجح فى شىء فلقد نجح فى تأخير فتح البانيا ، وأوقف مدة التيار التركى العنيف الذى ربما كان اكتسح إيطاليا .

بعد موت اسكندر بك سيطر السلطان محمد الثانى على البانيا تماما وطرد البندقية من ممتلكاتها الساحلية فبدأ انكماشها واضمحلالها .

فتوحات السلطان الفاتح فى آسيا

وأما فى آسيا فلقد كان نجاح السلطان محمد الثانى تاما . فاستطاع أن يقضى على بقايا الأغريق فى آسيا الصغرى ، فاستولى على سينوب وطربزون . وكان لطربزون امبراطور أغريقى ليست له إلا المدينة وضواحيها فحاول تقوية مركزه بالاتفاق مع أوزون حسن الذى كان يسيطر على بعض اجزاء من أرمينيا والعراق وفارس . ولكن لما علم أوزون حسن بمجىء السلطان بجيش كبير طلب السلام وترك الأمبراطورية

الأغريقية فى آسيا الصغرى لتلقى مصيرها المحتوم . فلقد توجه السلطان إلى المدينة وحاصرها برا وبحرا ، وبعد فترة صغيرة سلمت المدينة فى سنة ١٤٦١ وبذا تلاشت دولة الأغريق نهائيا فى آسيا الصغرى ، وأصبح الأناضول تركيا إسلاميا لا سيطرة فيه للأغريق إلا فى فترة صغيرة تلت الحرب الأوربية الكبرى الأولى .

وأصبح للعثمانيين السيطرة التامة على بحر مرمره وبحر الأرخبيل والبحر الأسود ، وخاصة بعد أن أرسل السلطان الصدر الأعظم لفتح بلاد القرم وتم له ذلك .

وأما فيما يختص بأمارة قرمان ، ففى سنة ١٤٦٣ مات أمير هذه البلاد ، وكان يدفع الجزية للسلطان محمد الفاتح . وترك ابناءاً سبعة اختلفوا فيما بينهم على وراثه الحكم ، فتدخل السلطان وقضى قضاء مبرما على استقلال هذه الأمارة فى سنة ١٤٧١ . وبذا أصبحت الأناضول عثمانية وانتهت نهائيا بقايا النظام السلجوقى القديم .

ولكن حدود العثمانيين الشرقية ما كانت آمنة أولا لغزو جنود التتار ثانيا لعداوة أوزون حسن السابق الذكر للعثمانيين ، فلقد حاول هذا الرجل نهب البلاد الواقعة على الحدد الشرقية ، وفعلا نجح فى ذلك ، فى إحراق بعض المدن الأخرى ، وهاجم قرمان ، فقابله الامير

مصطفى بن محمد الفاتح ، وأسر قائد الغزاة ، وكبله بالحديد وأرسله إلى ابيه ، وقامت وقائع أخرى كان النصر فيها حليف الأتراك أيضا . وحاول أوزون حسن هذا ، وقد أحس بالخطر على بلاده — فتح باب المفاوضات مع رودس والبندقية وطلب منهما إمداده بالمدافع وبعض رجال المدفعية ، وفعلا انجدته البندقية ، فعاد إلى غزو الحدود العثمانية ، ولكن قواته دحرت ، وهرب هو من ميدان القتال بحياته ، فعاد إلى الحدود الشرقية أمنها وسلامها .

على أن فتوحات محمد الفاتح وضعت أساس الخطة التى سيتبعها خلفاؤه فيما بعد ، فلقد أصبح للعثمانيين حدود غير مستقرة مع كل من مصر وفارس والمجر ، وكان لا بد من وقوع الاصطدام بين العثمانيين وهذه الدول عاجلا أو آجلا .

علاقة السلطان الفاتح

بجنوه والبندقية وإيطاليا

كان لوجود العثمانيين فى أوربا وحلولهم محل الأغريق فى البلقان وفى القسطنطينية أثر كبير على علاقاتهم مع جنوه والبندقية .

لقد عمل السلطان محمد الثانى فعلا على المحافظة على العلاقات السلمية بينه و بين هاتين الدولتين أثناء حصاره لمدينة القسطنطينية ،

فلم يهاجم غلطه ، وهو مستعمرة جنوية مستقلة على حدود القسطنطينية ، ولكنه عندما انتهى من فتح مدينة قسطنطين طلب من الجنويين هدم حصون غلطه وأسوارها وفرض عليهم الجزية مما عمل على سوء العلاقات بينه وبين جنوه .

وعلاقة السلطان السيئة مع جنوه هى التى دعته إلى التفكير فى القضاء على ممتلكاتها فى البحر الأسود . ولذا أرسل حملته المشهورة إلى بلاد القرم إلى ثغر كافا . كانت الحملة بقيادة الصدر الاعظم ومكونة من أسطول ضخم وأربعين ألف مقاتل .

وكانت مدينة كافا قوية وغنية ، فلقد كان يطلق عليها اسم القسطنطينية الصغيرة . ولم تستطع المدينة الوقوف أمام قوات السلطان العظيمة ، فسلمت بعد حصار أربعة أيام ، وكانت الغنائم والاسلاب كثيرة واصطفى السلطان محمد الثانى ألفا وأربعمائه من ابناء نبلائها للخدمة فى صفوف الانكشارية ، ثم استولى الأتراك على شبه جزيرة القرم كلها ، وأصبح خانات التتار فى هذه الاجزاء الواقعة فى شمال البحر الاسود تابعين للدولة العثمانية لمدة تقرب من ثلاثة قرون .

ولم تكن علاقة السلطان محمد الثانى بالبندقة خيرا من علاقاته مع جنوه ، فلقد اصطدمته بقوات البندقية على سواحل بلاد الاغريق ،

وفى جزر بحر الأرخبيل ، وكانت نتيجة ذلك الاصطدام المسلح أن استولى العثمانيون على ايبوبيا ولسبوس ولمنوس وسفالونيا وبعض الجزر الأخرى .

وبعد أن استولى السلطان على البانيا والبوستة والهرسك زاد اتصاله بممتلكات البندقية على الشاطىء الشرقى للبحر الأدرياتى . وأراد السلطان الفاتح أن يعاقب البندقية على موقفها العدائى ازاءه فى كثير من الظروف ، فأرسل فى سنة ١٤٧٧ جيشا قويا إلى ممتلكاتها يحاول تهديد المدينة نفسها ، ففزعت البندقية وأقامت التحصينات المنيعة ، ولكن الاتراك اخترقوا كثيرا من هذه التحصينات وهزموا جنودها مرارا واكتسحوا بلادها إلى قرب المدينة ، وارتجف شيوخ المدينة فى قصورهم لهول الانباء التى وصلت إليهم ورأوا بأعينهم النيران تشتعل فى قراهم ، ولكن لحسن حظهم لم يكن السلطان الفاتح ينوى الاستيلاء على هذه المدينة ، ورجعت جنوده وسراياه محملة بالأسرى وبالغنائم الكثيرة .

ولذا أسرعت البندقية فعقدت صلحا مع السلطان محمد ، وتعهدت بأن تساعد السلطان بأسطول مكون من مائة سفينة إذا هاجمته دولة أخرى ، ووافق السلطان على أن يساعدها بمائة ألف جندى إذا هاجمها أعداؤها .

وكان السلطان محمد الثانى يفكر فى إخضاع إيطاليا ، ولكنه كان دائما يؤجل ذلك المشروع أولا لظروف العثمانيين الحربية فى البلقان ولعناد هونيادى واسكندربك ، ولذا بعد ما اختفى هذا الخصمان من المسرح السياسى فى البلقان ، جهز السلطان محمد الفاتح الاستعدادات العظيمة البرية والبحرية ، وأحب أن يمهد لذلك بالاستيلاء على جزيرة رودس حتى لا تصبح شوكة فى جانب ممتلكاته العظيمة . وكانت فى يد فرسان القديس يوحنا الذين وطدوا مركزهم فيها فى أوائل القرن الرابع عشر ، وأصبحوا قوة مستقلة لا يستهان بها ولقد وصلت للسلطان معلومات عن هذه الجزيرة وعن حصونها ، ولذا أرسل مسيح باشا فى ابريل سنة ١٤٨٠ بقوة كبيرة مكونة من مائة وثمانين سفينة وجيش قوى ومدفعية كبيرة ، واستطاع الباشا أن ينزل فى الجزيرة ، واستولى على بعض الأماكن فيها ، وحاصر المدينة ، فدافعت عن نفسها دفاعا مشهودا ، وكادت تسقط لولا جشع الانكشارية وسوء سياسة القائد

لقد استطاع الأتراك بمدفعيتهم القوية إحداث ثغرات فى أسوار المدينة ، ورفع العلم العثمانى فعلا على الأسوار ، وكادت المدينة تؤخذ لولا أن أعلن مسيح باشا فى هذه اللحظة أن الغنائم كلها ستحفظ للسلطان ، ففت ذلك فى عضد المهاجمين وغضبت الجنود المهاجمة ،

ورفضوا مساعدة إخوانهم الذين اقتحموا الأسوار ، وانتهز المدافعون ذلك الخلل ، فردوا الفرق الاولى المهاجمة على أعقابها ، واضطر مسيح باشا إلى رفع الحصار والعودة ، وأنقذت رودس لمدة نصف قرن من الزمان .

وفى نفس الوقت الذى هاجم فيه الأتراك رودس أنزلوا جنودهم بقيادة بطل القرم إلى إيطاليا ، على شاطئ أبوليا ، وساروا نحو تارنتوا ، وكانت تعتبر فى ذلك الوقت مفتاح جنوب إيطاليا ، فلم تستطع الوقوف طويلا أمام قوة الأتراك وسلمت فى أغسطس سنة ١٤٨٠ وقتل سكانها واستبيحت المدينة . فكانت هذه الحملة الحربية درساً قاسيا لايطاليا لتدخلها فى شئون البلقان ، وتهديداً لمركز البابوية فى إيطاليا ذاتها .

لقد وضع السلطان محمد الفاتح قدمه فى إيطاليا واستولى على ميناء صالحة لتوغل جنوده فى داخلها ، وأخذ فى تجهيز معدات عظيمة لاتمام مشروعه ، ولم يكن يعرف وجهتها الحقيقية غيره ، فلقد كان يحتفظ دائماً بسرية مشاريعه لنفسه ، ولكنه مات بغتة فى وسط جيوشه فى ٣ مايو سنة ١٤٨١ ، فانقذت إيطاليا من الخطر العثمانى .

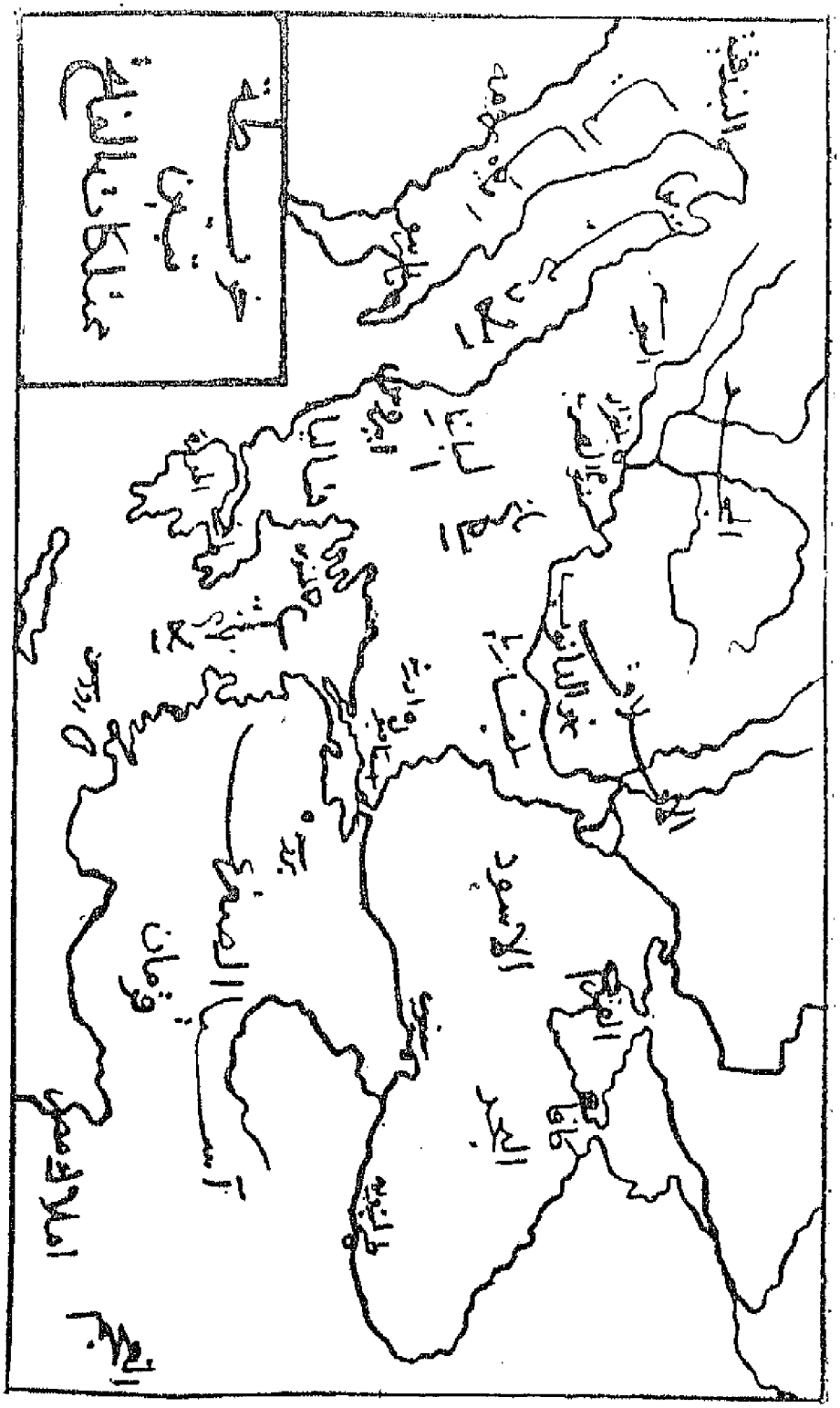

عصر الفاتح وتنظيماته

أنشأ السلطان محمد الثانى الفاتح دولة عظيمة ، هى غير منازعة أقوى الدول الكبرى فى القرن الخامس عشر، ووحدها أرضاً وشعوباً فأصبحت كتلة متماسكة تمتد من أعالى نهر الفرات إلى الأدرياتى، ومن البحر الأبيض إلى نهر الدانوب والقرم ، وأزال بقايا الدول التى كانت تجهد بغيش ناصب فى آسيا الصغرى أو تناوئ الأتراك العثمانيين فى البلقان ! واتخذ للأتراك عاصمة جديدة عظيمة لها تاريخ مجيد جميلة الموقع متوسطة المركز بين بلادهم الآسيوية وممتلكاتهم الأوربية ، تشرف على البر والبحر ، وتتفق مع ما أصبح للعثمانيين من مجد وقوة وجبروت ، ولم يعد بعد عهد الفاتح للأغريق ولا للبنادقة ولا للجنويين أو الأغريق أو الصرب قوة ولا ذكر فى البلقان إلى أن جاء القرن التاسع عشر . ومهدت فتوحات ذلك السلطان العظيم الطريق لفتوح العثمانيين التى سيقوم بها خلفاؤه فى الشام ومصر والعراق والحجر وأواسط أوربا .

كان السلطان الفاتح مصلحاً كبيراً ومنظما من الطراز الأول ، كما كان رجل حرب من العبقريات النادرة التى شهدها التاريخ .

وكان رجل ثقافة واسع الاطلاع فى العلم والأدب يتذوق الشعر و يستلهم الفن ، كما كان طويل الباع فى الادارة والحكومة .

رتب السلطان الحكومة الجديدة لدولته العظيمة ، واستفاد من كل الظروف المحيطة به، واستلهم كل الحضارات التى ترك تراثها للعثمانيين فهو سلطان مسلم يحكم دولة واسعة الأطراف إسلامية قبل كل شئ ، ولكنه فى نفس الوقت جلس على عرش الأباطرة البيزنطيين فى مدينتهم وعاصمتهم فأصبح خليفة القياصرة كما حل محل الأمراء الكثيرين الذين كانوا يحكمون فى البلقان .

حكم السلطان الفاتح دولة تتكون من أجزاء مهمة فى شرق البحر الأبيض لها حضارات شرق البحر الأبيض ، حضارات امتزج فيها الشرق والغرب معاً ، وتقابلت فيها نظم سياسة مختلفة وقوانين وعادات متباينة ، وديانتان عظيمتان هما المسيحية والاسلام ، فكان لا بد من مراعاة هذه الحقائق جميعها والاستفادة منها فى إقامة صرح دولته الجديدة العظيمة .

اهتم محمد الثانى باصلاح النظام الداخلى للدولة ، وعنى قبل كل شئ بنشر الطمأنينة والسلام التركى فى امبراطوريته الواسعة التى تجمع عناصر كثيرة من خلائق يختلفون فى الجنس واللغة والدين والعادات ،

فبجانب الأتراك المسلمين وهم عمود الدولة الفقرى ، يوجد الأغريق والصقالبة على اختلاف أنواعهم والبلغار والألبانيون ، يوجد الأرثوذكس والكاثوليك ، عاش هؤلاء جميعا قبل الحكم العثمانى حياة اضطراب وفوضى لا يعرفون للأمن طعما ونسوا من زمن بعيد كل شئ عن الطمأنينة والاستقرار ، فلا بد إذن من وضع نظام قوى للحكم يعطى لهؤلاء ما فقدوه من حرية وراحة وسلام ، ولا بد من وضع نظام خاص لسكان الدولة من غير المسلمين ينظم العلاقات بينهم و بين جيرانهم من المسلمين ، بينهم و بين الدولة التى تحكمهم وترعاهم .

* * *

كان أول ما عنى السلطان محمد الثانى منذ أن تولى السلطنة العمل على استقرار العرش لأنه عرف من تجارب التاريخ العثمانى أنه على استقرار مركز السلطان يتوقف كل شئ فى الدولة ، تتوقف قوتها ونظمها ، رأى الخلل والاضطراب يلم بالدولة إذا ما برز المتنافسون على العرش وأوقدوا نيران الحرب الأهلية ، ولم يخف عليه ما عانته الدولة من حروب أهلية كادت تؤدى بحياتها فى عهد من سبقوه من السلاطين كما قرأ بنفسه قصه الانقسام والتفرق فى البلقان ، وما آلت إليه حال أهلها من ضعف واضمحلال ، ولذا عمل على استقرار مركز السلطان

ولم يكن هناك قبل عهده قانون يحدد من يلى العرش العثمانى بعد وفاة السلطان فوضع السلطان الفاتح سنة جديدة ، وإن كانت تظهر للكثيرين سنة قاسية سيئة ، وهى أن السلطان الذى يلى الحكم له الحق فى قتل إخوته الباقين حتى لا ينازعه أحد منهم على العرش فى المستقبل فجعل بذلك قتل الاخوة سنة مشروعة ، ولكنه بررها أمام نفسه وأمام الناس بأن غرضه منها هو : « سلام الدنيا والعالم » فوجود الاخوة ، كما فهم هو من التاريخ العثمانى ، من العوامل التى تثير الفتنة بين المسلمين فقتلهم أهون فى نظره من إثارتها .

وكان يرى أن يكون مركز السلطان محترما بين رجال دولته فكان من أعداء التبذل و إن كان من أنصار التبسط ، لم يسمح لأحد من رجال دولته بالجلوس على مائدته جعل ذلك قانوناً ، فوضع بذلك تقليدا هو ألا يكون للسلطان إلا صحبة ممتازة يأنس بها ، زمرة من رجال الدين والعلماء والفلكيين والأطباء ، فلم يكن للفاتح إذن اتصال برجال الدولة إلا حين تقضى بذلك أعمال الدولة و إلا إذا كان لهؤلاء الرجال صفات علمية أو أدبية أو فنية تتناسب وذوقه ، ولذا كان رجال الدولة بلا استثناء يرهبونه ويخشون جانبه ويخافون بطشه .

وليس معنى ذلك أن فاتح القسطنطينية لم يكن يختلط برجاله أو

بجنوده أو علمائه ففى أوقات الحرب أو الاستعداد لها كان دائم الاتصال بوزرائه قواده وجنوده يشرف عليهم بنفسه ، ويقوى من روحهم المعنوى ويعدهم ويمنيهم بكل ما يستطيع تنفيذه ، وفى أوقات السلم فى مجالسه الأدبية وحلقاته الشعرية كان يتبارى مع الأدباء والشعراء والعلماء فى تذوق الأدب وقول الشعر ونقد الكتب .

ولقد وضع السلطان محمد الفاتح قوانين الاتيكيت والحفلات فى الدولة العثمانية ، وهو بلا شك متأثر بالحياة الاجتماعية للأباطرة البيزنطيين وباتساع الدولة ودخول عناصر أجنبية غريبة فيها ، فوضع بذلك أساس التشريفات فى القصر السلطانى العثمانى .

* * *

ووجه عنايته كذلك إلى قوانين الدولة ، فحاول تقنين الشرع واختار لذلك من العلماء الأجلاء من يستطيع القيام بهذه المهمة العظيمة ووضع قانون نامه ، وهذا القانون كما يقول هو « هو قانون أبائى وأجدادى سيعمل به خلفائى من بعدى من جيل إلى جيل » فحاول أن يقنن الأوامر والمراسيم التى أصدرها فى أوقات مختلفة السلاطين ممن سبقوه . ولم يكن هذا التقنين كاملا بأى حال ولكنه وضع الأساس .

هذا القانون مكون من ثلاثة أبواب وهو يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ فى التشريفات والاحتفالات، وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات .

ونظم السلطان الفاتح الحكومة الجديدة ، وساعده فى هذه الناحية الصدر الأعظم محمد القرمانى . وهذه الحكومة حكومة إسلامية قبل كل شىء قائمة على تفوق العنصر الإسلامى أيا كان أصله أو جنسه ، ولقد جعلها السلطان ترتكز على دعائم أهمها الوزارة والقضاء والمال .

أما من حيث الوزارة فلقد جعل الفاتح عدد الوزراء أربعة وجعل للصدر الأعظم قيادة الجيش ورياسة الديوان — وإن كان الفاتح قد اهتم بالأشراف على الأمور فى كثير من الأحيان بنفسه . أما من حيث النظام الأدارى ، فلقد أبقى السلطان النظام القديم بأدخال بعض تعديلات بسيطة فيه . وهذا النظام يقضى بتقسيم الدولة إلى ولايات للكبرى منها بايلربايات (جمع بايلربای) وللصغرى البكوات الصناجق وترك لبعض الأمارات الصقلبية فى أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلى ، فكان يحكمها أمراء منها ، ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة ، وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا فى الثورة على حكومته .

ولقد اهتم السلطان الفاتح اهتماما خاصاً بالجيش ، فالجيش فى نظره أساس الدولة وركنها الأول ، فعنى بأعادة تنظيمه و بمسألة قيادته ، فكان لكل فرقة أغا هو قائدها وجعل لأغا الأنكشارية حق التقدم على القواد الآخرين فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذى جعل له السلطان القيادة العليا للجيش .

ونال عنصر الرقيق فى الجيش عناية خاصة ، فكما كتب إلى أوزون حسن يقول « إن دولتناهى منزل الإسلام و إن سراج إمبراطوريتنا ليضئ من ثاقب الكافرين » . كان السلطان محمد يشعر أن دولته أكبر دولة إسلامية ، ولذا فهو يعمل على تجديد شبابها وقوتها متبعاً سنة من مضى من السلاطين العثمانيين ، وذلك بأدخال عناصر جديده فيها ، هذه العناصر التى أثبتت كفايتها وحدارتها . لقد كان مؤمنا بمهمته الإسلامية والعالمية ، فهو يرى ضرورة الجهاد فى سبيل الله ، ويعتقد أن نظم الدولة يجب أن تخدم هذه الغاية النبيلة ، هذه الغاية التى ترمى إلى ضم العناصر المسيحية النشيطة إلى هذه الدولة الناهضة القوية .

عنى السلطان محمد الثانى بفرق المشاة عناية خاصة فى الوقت الذى ظلت فيه أوربا تعتمد على نظام الفرسان كأهم فرقة فى جيوشها ، ومن المقطوع به أن الدول التى اهتمت بنظام المشاة فى ذلك الوقت كان لها نصب السبق

فى أوربا ، فتركيا من ناحية الشرق ، وأسبانيا من ناحية الغرب كانتا أقوى دول فى أوربا من الناحية الحربية ، فى النصف الثانى للقرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر . وإذا كان محمد الثانى قد اهتم بنظام الجيش ، فلقد كان أهم عوامل استقرار النظام فيه الانتظام فى دفع مرتباته ، فوجه السلطان عنايته بصفة خاصة إلى هذه الناحية ، بل واهتم بزيادتها من حين لآخر ، ولقد أعاد تنظيم الانكشارية ، وناط برئيسها أعمال البوليس بمدينة استامبول ، فلا عجب إذا أصبح جيش الفاتح الجيش المنصور الذى لا يقهر .

ونبغ فى عهد الفاتح عدد من القواد النابهين الذين عاونوه فى حروبه وكان لهم ضلع كبير فى انتصاراته ، وربما كان أهمهم محمود باشا وأحمد باشا ، وكل من هذين الرجلين تولى الوزارة والصدارة العظمى ، وكل منهما من أصل مسيحى ، وارتفع مكاناً علياً فى الدولة .

فأما محمود باشا فكان يطلق عليه ولى الدين محمود ، ولد من أبوين صربيين ، وكما تقول رواية من أب أغريقى وأم صربية ، وأتى به إلى أدرنة إلى بلاط السلطان مراد الثانى حيث تثقف ثقافة إسلامية ، ثم نبغ فى الدولة ، فعينه السلطان محمد الثانى صدراً أعظم فى سنة ١٤٥٣ بعد إعدام خليل باشا ، وكان يصحب السلطان فى كل غزواته ، ثم

كلفه السلطان بأخضاع الصرب ، وهو الذى قاد الحملة البحرية إلى طرابزون وسينوب، بينما كان السلطان نفسه يقود الحملة البرية. واشترك كذلك معه فى حروب المجر والبوسنه ، وحكم صنجق غاليبولى ، ولقد بنى هذا الرجل مسجداً ومدرسة فى استامبول ، وكان محبا للعلم يتذوق الأدب ويقول الشعر وله ديوان عدلى .

أما أحمد باشا كبيديق فأصله جندى انكشارى أوصلته كفايته ومقدرته إلى منصب القيادة ، وتم على يديه زوال الحكم السلجوقى نهائياً من آسيا الصغرى، وهزيمة أوزون حسن وإخضاع كيليكيا للأتراك. وكصدر أعظم تم على يديه فتح القرم ، وهو قائد الحملة الأيطالية التى استولت على تارنتو . ولقد اشترك ذلك الرجل فى الأحداث السياسية فى عهد السلطان بايزيد الثانى ابن الفاتح مما أدى إلى اضطهاده .

* * *

وكما اهتم السلطان الفاتح بالجيش اهتم بالمسائل المالية فهى أساس مهم من أسس الدولة . فدقق فى تنظيم جمع الضرائب حتى تكون الحكومة مطمئنة إلى موارد دخلها ، وجعل السلطان محمد الثانى الأشراف على الأمور المالية للدفتر دار ، وهى وظيفة ترجع إلى أصل فارسى ، وكان للدولة على عهد الفاتح دفتردار واحد لروميليا عين له

السلطان مساعدا يختص بالشئون المالية لآسيا الصغرى .

وعنى بالقضاء فهو من عمد الدولة كما عنى برجاله وتحديد وظائفهم ومناصبهم ، وجعل الاشراف عليه لقضاة العسكر ، فكان لهم مركزهم فى الدولة فهم أعضاء فى الديوان ويتقدمون على الوزراء ، والسلطان الفاتح هو الذى أعطى المفتى لقب شيخ الإسلام فأصبح ذلك المركز وخاصته بعد عهد الفاتح من أعظم مراكز الدولة .

وكانت قوانين الدوله تختلف على حسب ملها وإن كان القانون الأساسى للدولة هو الشرع ، فهو قانون الحكومة الذى يحدد علاقات المسلمين ، وعلاقتهم بغيرهم من سكان الدولة ، فهو يحدد علاقة المسلمين بالذميين .

ولقد ترك للذميين حق اتباع كنائسهم الخاصة وقوانين ملهم المختلفة وتقاليدهم فيما يتعلق بمسائل الحكم المحلى ، وفيما يختص بمسائلهم الشخصية كالزواج والطلاق ، وكذا المسائل الدينية ، فهؤلاء الذميون تركوا ليتبعوا فى حياتهم نظمهم وتقاليدهم القومية ! فكان حكم الأتراك لهذه الرعية حكما غير مباشر ، ولم تشترك هذه الرعية فى حياة الدولة السياسية أو العلمية إلا بقدر صغير محدود ، ولكنها تمتعت بسلام وأمن لم تعرف مثلهما قبل الحكم التركى .

وراعى الأتراك فى القضاء العدالة التامة بين المسلمين والمسيحيين إلى حد أن أحدى الفتاوى قد صدرت تقول بأنه إذا قتل ألف من المسلمين مسيحيا واحدا مخلصا للسلطان دون حق يجب قتلهم ، ولقد فرض النظام العثمانى على المسيحيين ضريبة الرؤوس وضريبة الأراضى ولم تكن حالهم سيئة فى عهد الحكم العثمانى فى العصور الأول ، بل كانت أمامهم الفرص للتعاون مع العثمانيين فى مناصبهم وحروبهم .

ونظراً لأن معظم رعايا السلطان الفاتح المسيحيين كانوا من الأرثوذكس يجب أن نشير هنا إلى أن فتح القسطنطينية لم يضعف من مركز الكنيسة الاغريقية بأى حال ، فلقد كان جورج سكولاريوس المسمى جناديوس والذى اختاره الفاتح بطريركا من أشد أعداء فكرة اتحاد الكنستين الشرقية والغربية ، بل لقد أعلن أن الخضوع للكنيسة الغربية اللاتينية نقمة على المسيحية ولعنة على الأمبراطورية وسيعقبه حتما انتهاء الدولة البيزنطية ، وفعلا تم ما تنبأ به .

كان السلطان الفاتح يرغب فى أن تستمر للكنيسة الأرثوذكسية قوتها ونظامها حتى يستطيع أن يسترضى الرعايا الأرثوذكس ، وأن يسهل لهم قبول الحكم الاسلامى الجديد . ولذا احتفظ السلطان بنظم الكنيسة العتيقة ، وأبقى لها الكثير من سيطرتها القديمة ، فطلب من

القساوسة الأرثوذكس الاجتماع لينتخبوا من بينهم بطريركا ، واعتمد من اختاروه وهو جناديوس ، واحتفل بانتخابه على النظام وبالأبهة التى كانت متبعة فى مثل هذه الاحتفالات فى عهد الأباطرة المسيحيين ، وقال له « لتكن بطريركاً على صداقتى فى كل وقت وظرف ولتتمتع بكل الحقوق والامتيازات التى كانت لمن سبقك » ولكى يرفع من مركز البطريرك فى الدولة الجديدة أهداه فرسا جميلا ، وجعل له حرسا خاصا من الانكشارية ، وصحبه باشاوات الدولة إلى المكان الذى أعده . ثم اعترف بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية ووضعها تحت حمايته ، وأمرها بأقامة حفلاتها الدينية كالمعتاد ، وجمعت واشتريت كل آثار الفديسين ومخلفاتهم التى نهبت وسلمت إلى الكنائس والأديرة .

ولكن كان على الكنيسة الجديدة أن تخضع للسلطان كبقية النظم الأخرى الموجودة فى الدولة ، ففى أى لحظة يستطيع السلطان عزل البطريرك أو كبار رجال الدين لاراد لقضائه ، ولكن من الناحية العملية ما كان السلطان يلجأ إلى اضطهاد الكنيسة أو رجالها بل كانوا دائما موضع حمايته وأكرامه . وكانت فكرة الاضطهاد الدينى غير موجودة فى ذهن الفاتح ، وإذن نعمت الكنيسة الأرثوذكسية فى عهده وعهد خلفائه بهدوء واستقلال لم تنعم بمثله قبلا حتى فى عهد كثير من

الأباطرة البيزنطيين أنفسهم ، وأخلص القسس الطاعة لذلك السيد العظيم .

قوى إذن مركز الكنيسة الأغريقية ، ورضى الأغريق عن ذلك الحكم الجديد الذى ترك لهم حرية المعتقد ومنحهم استقلالا دينيا غير منقوص ، ولقد أبقى الفاتح بعض الكنائس على حالها ، ولم يمنع المسيحيين من إقامة شعائر دينهم فيها وأصبح حى الفنار المطل على القرن الذهبى حلقة الاتصال بين القسطنطينية الإسلامية والقسطنطينية المسيحية .

وفى حى الفنار المظلم هذا وفى منازله القاتمة عاشت العائلات الأغريقية العظيمة مثل الكومنى والباليولوجى والدوكا ، عاشت كآثار ارستقراطية عظيمة عريقة ، عاشت لا أراضى لها ولا جاه إلا الأصل المجيد الذى تنتمى إليه .

لقد أصبحت البطريركية الأغريقية فى استامبول موئلا المسيحية ومراكز للقومية الاغريقية إلى أزحان الوقت لظهور الأغريق كأمة لها كيانها الخاص حين ضعفت الدولة العثمانية فى أوائل القرن التاسع عشر

وأما القسطنطينية فلقد أصبحت استامبول فى فم الأتراك ، وأصبح هلال بيزنطة رمز القوة العثمانية . وعلماً لعظمتها .

وأما من حيث إعادة الحياة والهدوء إلى هذه المدينة العظيمة فلقد أمر السلطان محمد الفاتح حين دخلها بوقف القتل ، ولم يسمح باستباحتها بعد الأيام الثلاثة التى حددها والتى وعد بها جنوده ، وكان قد قتل من سكان المدينة العدد الكثير ، وشرد العدد الكثير ، وأسر العدد الكثير، ولكن ما كان الفاتح يعمل على خراب المدينة العظيمة مطلقا ، فهو رجل مقدر للجمال يتذوق الفن ، و إنما كان عليه أن يعيد لها مركزها القديم وعظمتها السابقة بنشر الأمن والطمأنينة فيها و إنشاء حياتها الاجتماعية والاقتصادية من جديد حتى تصبح صالحه لأن تكون عاصمة لأقوى دولة فى أوربا وآسيا معاً . فأعاد إصلاح أسوارها ، و بنى فيها حصناً منيعاً له سبعة أبراج، وعمل على تشجيع من بقى سكانها على الاقامة فيها والاستقرار ، وطلب من كثير من العائلات التركية والأغريقية والألبانية سكناها ، وعاد إليها عدد كبير من سكانها الذين كانوا هربوا منها كما لجأ إليها عدد لا يستهان به من مهاجرى الأرمن والفرس والعرب.

ولقد اهتم السلطان الفاتح بانشاء المبانى العظيمة فى هذه المدينة ، فبنيت فيها دار السعادة العتيقة بقرب الجامع الذى كان أنشأه السلطان بايزيد خان الأول ، فكانت أول دار أنشأها السلاطين العثمانيون بعد فتح هذه المدينة ، وكذلك أمر السلطان الفاتح ببناء جامعه المشهور

باسمه ، وهو واقع على التل الرابع فى المدينة ، بناه المهندس خرستو دولاس على أنقاض كنيسة سان أبوتر ، وهذا الجامع يرى من البحر من مسافة بعيدة وله مأذنتان ، وقد أصابته الزلازل فيما بعد ، فأعاد بناءه السلطان مصطفى الثالث . ومن منشئآت السلطان الأخرى جامع أبى أيوب الأنصارى ، وجامع الشيخ البخارى بجانب باب أدرنه ، وجامع الانكشارية (ارطه جامعى) . كما أنشأت السلطانه زوجته ستى خانوم جامعاً فى أدرنه ، وكذا بنته السلطانه عائشه أنشأت جامعاً فى نفس هذه المدينة التى كانت تعتبر ثانى مدن الدولة العثمانية . وأمر السلطان ببناء ثمان مدارس حول جامعه الكبير ، وشيد خلفها منازل للطلبة ومستشفى (دار الشفاء) وحمامات ، وبقربها خانات لنزول المسافرين ، كما أنشأ مدرسة للعلوم الشرعية ، وبالجامع مكتبة هى الأولى من نوعها فى استامبول ، وبقربها يوجد قبر عليمة هانم أم السلطان محمد الثانى ، ويقول رامبرتى (الذى كتب فى سنة ١٧٣٤) « بأن جامع السلطان له (إمارة) متصلة به يسمح لكل شخص بالنزول فيها حيث يستضاف ثلاثة أيام ، فيعطى العسل والأرز واللحم والخبز وغرفة للنوم وكان يهواها الآلاف من الناس ، وبجانبها الحمامات والسبل الجميلة » .

وفى استامبول ميدان سمى باسم الفاتح ، وهو « فاتح ميدانى » وآق ميدان ، وهناك أيضاً محلة تنسب إليه فيها جامع ومدرسة ، ولها سوق خاصة شهيرة تعقد فيها ويجد الناس فيها ما يحتاجون إليه بالأسعار المناسبة .

ومن المساجد التى أنشئت فى العاصمة فى عهده كتشوق أيا صوفيا على بحر مرمره ، وكانت فى الأصل كنيسة القديس سرجيوس وباكوس وجامع زيرق على القرن الذهبى وكان كنيسة أيضاً وحول جامعاً وسمى على اسم ملا زيرق ، وكذلك جامع محمد باشا وجامع مراد باشا سميا باسم وزيرين للسلطان الفاتح .

وأما قصر السلطان ، فكان كبيراً وإن إمتاز بالبساطة ، فقد كان السلطان الفاتح ميالا إلى الوحدة والتفكير ، منصرفاً إلى دراسة فنون الحرب والأدب والفن ، وكان له حريمه الخاص ، وإن لم يكن معروفاً عنه حب الترف أو الانهماك فى الملذات والشهوات ، كان للحريم مقر خاص به ، وبه الغرف اللازمة لأبناء السلطانه وأمهاتهم السلطانات وكانت الكسوة تجرى على الحريم عدة فى الأعياد والمواسم والمناسبات . وبالقصر أماكن خاصة بالفتيات العذارى ، وكلهن من أصل رقيق ، جلبن عن طريق الشراء أو الأسر ، وكان عدد كبير من نساء الحريم

قد دربن لأعمال الخدمة والطهى وغيرها ، وكان السلطان عادة يصطفى لنفسه من الحريم الخاص من يشاء ، فيعطين عند ذلك حجرات منفصلة متميزة ، ومن لم يحظين باختيار السلطان يزوجهن السلطان عادة لوزرائه وقواده ، أو المقربين منه ، ويحل محلهن غيرهن ممن سرن فى نظام تعليمى معين . وكان ذلك النظام يعنى بتدريب الفتيات وتعليمهن إلى سن الخامسة والعشرين .

وأما العاصمة نفسها ، فلقد تغير وجهها بالفتح العثمانى ، فلقد تحولت كثير من الكنائس إلى مساجد ، وجعلت المساجد العظيمة التى قام بتشييدها السلطان العثمانى ووزراؤه للمدينة فخامة وبهاء فتانا ، وروعة أخاذة بمآذنها العالية ، وقبابها المستديرة ، كما كانت مقابر السلاطين العثمانيين الذين خلفوا الفاتح قطعاً رائعة من الفن ، وفى هذه المبانى الجديدة لم يندثر الفن البيزنطى بأى حال ، وكثرت الخانات والتكايا والزوايا ، ولم يمض نصف قرن على الفتح العثمانى إلا وشيدت القصور العظيمة التى تزينها الحدائق الجميلة ، وهاجر إلى المدينة تحت رعاية السلطان عدد كبير من عرب اسبانيا ويهودها الذين اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية ، وأذاقتهم أصناف العذاب ، وقامت الأسواق العظيمة ، وعاد إلى المدينة رونقها وحركتها ، نتيجة للتسهيلات الكثيرة التى وضعها العثمانيون للمهاجرين والتجار .

ولقد بقى فى المدينة الخالدة (كما يقول رامبرتى الذى زارها وكتب عنها فى سنة ١٥٣٤) كثير من الآثار العظيمة القديمة التى ما زالت محتفظة برونقها فقناطر المياه وأقواس النصر والأعمدة ما برحت تشهد بماضى هذه المدينة المجيد . وقرر رامبرتى أيضاً أن هذه المدينة لا زالت متمتعة بجمالها وبهجتها ، وهذا يدحض زعم هؤلاء الذين يقولون إن الأتراك خربوا المدينة ، وقضوا على كثير من آيات الفن فيها ، ولم ينته عهد الفاتح إلا والمدينة آهلة بالسكان عامرة بالأسواق والمصانع الحربية وغيرها ، فلقد أحياها الفتح العثمانى ، أصبح للمدينة حياة جديدة زاهرة بعد أن تفوق فيها العنصر التركى ، وتركزت فيها الدولة الاسلامية الجديدة بقوتها وعظمتها .

ويدعى بعض المؤرخين الافرنج أن القسطنطينية فقدت مركزها باستيلاء العثمانيين عليها ، وهذا غير صحيح ، ولا ينطبق على الواقع بل بالعكس لقد عظم مركز القسطنطينية بعد أن احتلها العثمانيون ، فبعد أن كانت عاصمة لدولة منهارة مضمحلة أصبحت عاصمة لأقوى دولة فى الشرق والغرب ، لقد كانت القسطنطينية حين احتلتها العثمانيون عاصمة بدون ممتلكات ، عاصمة بدون دولة حقيقية . ولذا لم تفقد القسطنطينية مركزها فى أوربا ولا بالنسبة لآسيا . بل قوى مركزها فى البلقان ، ولم تفقد شرقيتها بأى حال

ولا صبغتها الارثوذكسية ، فلقد حافظ السلطان محمد الفاتح على هذه الصبغة التى كادت تندثر بالاتحاد مع الكنيسة الغربية لو طالت حياة الدولة البيزنطية قليلا .

لقد ظلت القسطنطينية ، استامبول ، عاصمة للشرق الأدنى غير منازعة لمدة تزيد على أربعة قرون ، منها يستمد حياته وقوته ونشاطه السياسى ، وينظر إليها كافة سكان الشرق الأدنى كمدينتهم العظيمة ، تهفو إليها قلوبهم ، وتحن إلى زيارتها والتمتع بجمالها وروعتها نفوسهم ، لم تفقد المدينة جمالها ولا عظمتها بل زاد هذا الجمال وهذه العظمة ، ولم تفقد مركزها الجغرافى أو الاستراتيجى أو الحربى أو السياسى ، بل بالعكس زادت هذه الأهمية ، فاستامبول ظلت مركز أوربيا سياسيا من الطراز الأول ، لا يقل مركزها عن مركزا عواصم الدول الكبرى الحديثة ، وظلت إلى الآن سيدة المضايق حتى بعد أن هجرها الاتراك إلى انقره ، وسيظل اسمها ما بقيت مقرونا باسم منشئها قسطنطين الأكبر وفاتحها محمد الثانى العظيم .

« « » »

ولم تكن ناحية السلطان الفاتح الثقافية أقل من النواحى السياسية أو الحربية أو التنظيمية .

كان السلطان الفاتح يحترم العلماء ورجال الدين ، وفاق فى ذلك كل من سبقه من السلاطين العثمانيين . لقد عمل على توطيد مركز العلماء ، وعلى إكرامهم ، وتوفير وسائل المعيشة والكرامة لهم ، كان الفاتح يعتبرهم بحق ركنا هاما من الأركان الأربعة الأساسية التى تقوم عليها دولته العظيمة . كان يعتقد أن القوة الحربية وحدها لا تبنى مجد أمة ولا تجعل لها استقرارا ، فهو رجل عظيم الثقافة مستنير محب للعلم ويتذوق الأدب ويغشى نواديه ويحفظ الشعر وكثيرا ما يتمثل به فى الظروف المختلفة وخاصة الشعر الفارسى ، وكان هو نفسه يحسن قول الشعر وله ديوان باللغة التركية مخطوط كتبه عماد من أشهر خطاطى إيران فى عهد السلطان سليم الأول ، ثم طبع فى برلين ولكنه ناقص كما يقول شهاب الدين سليمان بك (صاحب تاريخ يكى عثمانلى تاريخ أدبيات) وديوانه يسمى ديوان عونى وكله فى الغزل .

ومن شعره .

ساقيا مى صوك كه بركون لاله زار ألدن كيدر
ابر يشور فصل خزان باغ وبهار ألدن كيدر

عزه أولما دلبرا حسن وجماله قبل وفا
باقى قالما زكيمسه به نقش ونكار ألدن كيدر

* * *

جكرم ياره لدى خنجر جو وستمك
صبرمك جامه سنى درغرادى مقراص غمك
سجده كاه أيلر ايدى كعبه محراب كبى
كو بك ايجنده ملك كورسه نشان قدمك

* * *

(ياساقى الكأس أدر الراح قبل أن تدبل الخزامى
قبل حلول الخريف وانقضاء الربيع وزوال نضرة البستان
لاتمنعى الوصال أيتها الغانية المفتونة بحسنك وجمالك
فالزينة والحسن يوما زائلان

* * *

إن سيف دلالك قد نفذ بين ضلوعى
وإن سلاح تعذيبك قد قطع صدرى
ولو رأت الملائكة آثار قدميك
لسجدوا فيها كأنها كعبة المحراب)

كان الفاتح دائبا على تثقيف نفسه وزيادة معلوماته فكان له معلمون اختارهم من بين العلماء البارزين يقرأ عليهم الكتب المختلفة ويتلقى عنهم العلوم مثل خواجه زاده وابن الخطيب ، وكان كثير النظر فى الكتب والرسائل التى يصنفها علماء عصره يفحصها ويقارنها ، وينتقدها ، وكانت له مكتبة خاصة عنى بجمعها واختيار كتبها وعين الملا لطفى أمينا لها مدة من الزمن .

وعنى الفاتح بالعلم والتعليم والمتعلمين والمعلمين ، فهو يعنى بالمتعلمين من حيث توفير سبل التعليم لهم والنفقه عليهم أثناء تعلمهم ، فمن بين هؤلاء المتعلمين من سيتولون وظائف التدريس والافتاء والتربية الأسلامية .

ولقد كلف السلطان الفاتح وزيره محمود باشا بأصلاح النظم التعليمية ، وكان ذلك الرجل خير من يقوم بهذه المهمة ، فتربته إنسانية شرقية وهو أديب وعالم وشاعر ظاهر ، فى عهد الفاتح انشئت المدارس العالية فى المدن الكبرى إلى جانب المكاتب التى عممت فى المدن والقرى ، وكان الفاتح يختار بنفسه العلماء الذين يقومون فيها بالتدريس ، وكان كثيرا ما يتباحث مع هؤلاء العلماء فيما يدرس ويسألهم عن أفاضل طلبتهم ليسرع إلى مكافأتهم وتعيينهم فى وظائف التدريس ، كما فعل

مع ملا خسرو وتلميذه ابن مغنيسيا . ولقد وضع لهذه المدارس البرامج المنظمة من مواد دينية ولغوية ، من لغات عربية وفارسية ورياضة وأدب وفلك ، وكان يعطى للطلاب المتخرجين شهادات تسمح لهم بالقيام بالتدريس بعد هذه الدراسة المنظمة ، فيمنح الطالب لقب معيد ، ولكى يكون الطالب عالما (اماما) عليه أن ينبغ ويتعمق فى دراسة الشرع الشريف والفقه ، وعليه أن يجتاز أمتحانات عديدة فى علم الكلام والتوحيد والأصول والفقه والشريعة الاسلامية قبلما يصل إلى هذه المرتبة .

و إذا استطاع الطالب بعد خمسة عشر عاما على الأقل النجاح اكتسب المجد الكبير والشرف والامتيازات الكثيرة ، فمن بين هؤلاء الطلاب والعلماء أساتذة المدارس العليا والقضاة الملات (ملا رتبة عامية) والمفتون واستامبول افندى (قاضى الآستانة) وقضاة العسكر فى أوربا وآسيا والمفتى شيخ الاسلام ولقد وضع السلطان الفاتح نظاما ماليا (كادرا) خاصا لهؤلاء العلماء .

كان عصر الفاتح عصرا حافلا بدراسة الشريعة والفقه الأسلامى نادر المثال فى التاريخ العثمانى ، يدل على ذلك كثرة المؤلفين فى هذه الدراسات ، وكثرة الكتب التى وضعوها باللغة العربية . وكان العلماء

كثيرا ما يجتمعون فى حضرة السلطان ويتناقشون أمامه فى المسائل الفقهية واللغوية ، وكان كثيرا ما يشترك معهم ويحكم بينهم ، وقلده فى هذا وزراؤه وخاصة محمود باشا وسنان باشا الذى « كان من عادته احضار العلماء . . . واحضار الأطعمة اللطيفة » تتلوها المناقشات العلمية .

وكان للعلماء فى عصر الفاتح قوة روحية كبيرة ومقام سام لتقدير السلطان لهم ولمكانتهم عندالناس ؛ وكانوا كبيرى الاعتداد بكرامتهم فكانوا يحتجون إذا حدث تقصير فى حق واحد منهم ، وكانوا يهددون بالخروج من مملكة السلطان فكان لايرد لهم طلب ولاشفاعة . وكان الفاتح يتبسط معهم إلى درجة يروى معها صاحب الشقائق النعمانية (ووالده عاصر الفاتح) فى ترجمة المولى فخر الدين العجمى . « ربما يمر السلطان محمد قدام بيتنا (بيت فخر الدين) ذاهبا إلى زيارة أبى أيوب الأنصارى . . . ويخرج أبى إلى الباب ويسلم عليه ويقدم له شربة ، ويقول السلطان محمد والله اشرب هذه الشربة ويناوله والدى بيده فيشرب منه ثم يسلم عليه ويذهب . »

كانت استامبول فى عهد الفاتح موئلا للعلماء من كل البقاع الاسلامية فلقد كان السلطان يستقدمهم و ينالى فى اكرامهم وفادتهم و يسهل لهم كل وسائل الأقامة ، فعل ذلك مع القوشجى الذى أهداه رسالة فى علم الحساب المسماه المحمديه ومع سراج الدين الخطيب وقطب الدين العجمى والشيروانى وغيرهم .

وأهم المدارس التى أنشأها الفاتح المدارس الثمان حول جامعه فى استامبول ومدرسة أباصوفيا ومدرسة أبى أيوب الانصارى ، ونحن نعرف أن الفاتح حول ثمانى كنائس فى استامبول إلى جوامع وألحق بكل منها مدرسة ، كما أنشأ مدارس فى بعض المدن المهمة الكبرى

وكان العلماء البارزون فى الفقه والشريعة فى عهد الفاتح كثيرين ، وقد ذكرهم وترجم لهم وعدد مناقبهم المولى أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده فى كتابه الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية .

وعلى رأس هؤلاء العلماء ملا خسرو محمد بن فراموز الرومى المتوفى سنة ١٤٨٠ م وهو رومى اعتنق الاسلام ، وتتلمذ على الشيخ حيدر الهروى الذى كان مفتياً فى البلاد الرومية ، وعين مدرساً فى مدرسة أدرنة المسماه شاه ملك ، و بعد فتح القسطنطينية عين قاضياً لاستامبول وللعسكر المنصور فى نفس الوقت الذى قام فيه بالتدريس فى مدرسة

أيا صوفيا ، وكان السلطان محمد الثانى يحبه و يحترمه و يفخر بوجوده فى دولته ، ووكل إليه تقنين الشرع الاسلامى ، ولقد تولى ذلك الشيخ الجليل وظيفة الافتاء ، ولقد كتب عنه السيوطى وترجم له ابن العماد فى شذرات الذهب ، ولهذا العالم مؤلفات كثيرة فى الشريعة الاسلامية والفقه منها مرقات الأصول مع مرآة الوصول ، وغرر الأحكام فى شرح درر الحكام والرسالة الولائية وكاشفات الشبهات الملائية وجملة رسالات أخرى مثل رسالة فى الاستخلاف للخطبة ، وأخرى فى أسرار الفاتحة .

ومنهم الشيخ أحمد بن اسماعيل الكوارنى . تلقى تعليمه فى القاهرة حيث كان موضع تقدير الأمير جقمق ، وكان السلطان الغازى مراد الثانى يكرمه إكراما شديدا ، وعينه مدرساً لولده محمد ، ولقد عينه السلطان الفاتح مساعدا لقاضى عسكر ، ثم عينه قاضيا فى مدينة بورصه ثم ولى الافتاء فى آخر الامر ، ومات بعد عهد تلميذه العظيم ، ولعظم قدره فى الدولة حضر السلطان بايزيد الثانى صلاة الجنازة عليه فى سنة ٨٩٣ هـ . وقد ترجم له السخاوى فى ضوء اللامع . وله غايات الامانى والبدور اللاوامع ، ولوامع العرز فى شرح فوائد الدرر ، وكشف الاسرار عن قرآات اللائمة الاخيار ، وغايات الزمان فى تفسير الكلام الربانى

ومنهم الشاعر والفقيه جلال زاده خضر بك كتب النونية فى العقائد

ومنهم مصلح الدين البروسوى كتب نقدا لتهافت الفلاسفة ورسالة فى الحركة ومنهم خطيب زاده بن تاج الدين ، وملا خيالى ، ومصطفى القسطلانى ، وعلاء الدين عربى ، وعلاء قوشجى الذى كتب الرسالة المفردية وعقود الجوهر والمعجز فى الطب ، ومنهم على بن مجد الدين شاهرودى الهروى ، وهو من أحفاد الفخر الرازى ومن تصانيفه شرح الارشـارد وشرح المصبـاح فى النحـو ، وشرح آداب البحث وشرح العقيدة الروحية لابن سينا وله تأليف أخرى بالفارسية . ومنهم ملا لطفى وهو صاحب رسالة فى تاريخ الحكمة ، وعبد الرحمن بن مؤيد الذى يقال أن له من المؤلفات سبعة آلاف مجلد ! ، ومنهم تكسارى وتاجر بك زاده وجعفر ، وسعدى شلبى ، وعلى جمالى ، وابن كمال ، والمفسر أبو السعود الذى عرف باسم كمال باشا زاده .

ولابن كمال آثار ومؤلفات فى الفقه والتفسير وعلم الكلام والحكمة والتاريخ والمعانى ، وكان ينظم الشعر باللغتين الفارسية والتركية . وأما أبو السعود فكان قاضياً ثم تولى المشيخة الاسلامية فأصبح شيخاً للاسلام ، ويقال أنه لما شاع خبر وفاته فى الحرمين صليت عليه هناك صلاة الغائب ؛ ويروى أنه كان يصدر فى اليوم الواحد الف فتوى ؛

وتفسيره للقرآن مشهور وشرحه لبردة البوصيرى يدل على قوة فى اللغة العربية واطلاع واسع فى الأدب العربى ، وهو يتبع فى أسلوبه السجع ويهتم بالصنعة اللفظية .

ومنهم محمد بن قطب الأزنيقى صاحب التعبير المنيف والتأويل الشريف ، وشرح الأوراد ورسالة فى المعرفة وفتح مفتاح الغيب ، ولقد جمع هذا الرجل كما يقول ابن العماد صاحب شذرات الذهب بين الشريعة والطريقة والحقيقة . وظهر فى الفلسفة كمال الدين مسعود الشروانى الرومى له رسالة فى الابحاث الثلاثة المتعلقة بالكلام والمنطق والحكمة وله شرح السمرقندية ، وشرح المواقف . . . ومنهم يوسف بن حسن القرمسطى كتب رسالة فى المواقف ، والوجيز فى أصول الدين ، وزبدة الوصول إلى علم الأصول ، ومنهم حاجى شلبى الفنارى صاحب رسالة على المبدأ الأول وشرح المواقف . وظهر فى اللغة السيد محمد بن السيد حسن بن على وله جامع اللغة ، ولطف الله شلبي وهو تلميذ التفتازانى له متصرفات الأسماء ومقدمات العلماء .

ومن أجل العلماء قدراً فى عهد الفاتح ممن توسلوا إلى الله بالتقوى صادقين الشيخ آق شمس الدين ، ولقد دعاه السلطان إلى صحبته عند حصاره مدينة القسطنطينية ، ولقد بشر ذلك الشيخ أحمد باشا ، وهو

أحد وزراء السلطان بالنصر وعين له وقت الفتح كما يروى صاحب الشقائق النعمانية ، وحمل الوزير هذه البشرى إلى السلطان ، فلما قرب الوقت الموعود ولم تفتح المدينة خشى الوزير غضب السلطان ، فأسرع إلى الشيخ فوجده يبكى ويتضرع إلى الله ويسأله أن يتم نصره ، ثم أنزل الله نصره ودخل الأتراك المدينة فى الوقت الذى عينه الشيخ فقال السلطان ما فرحت بهذا الفتح مثل فرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمانى .

وكان السلطان يرسل إليه ويقربه ، ويروى أنه بعد إتمام فتح المدينة العظيمة التمس من هذا الشيخ الموهوب أن يريه قبر أبى أيوب الأنصارى فتوجه الشيخ ساعة وكشف عن موضع القبر فبنى السلطان عليه القبة والجامع .

هذه القصص مهما كان نصيبها من الصحة إن دلت على شىء فهى تدل على مقدار تعلق السلطان برجال الدين وأولياء الله الصالحين .

وكان للسلطان محمد الفاتح روح اجتماعى طيب سمح فله من أعمال الكرم والجود والبر الشىء الكثير ، فلقد عين للأرامل والأيتام فى كل سنة النفقة والكسوة ما يفى بحاجتهم و بنى المستشفيات والسبل والحمامات المجانية .

وكان الفاتح يعلق أهمية كبيرة على كشف قبر أبى أيوب الانصارى وكذا كل الأتراك لما لصاحبه من قدر جليل وسابقة فى الاسلام ونصرة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان البيزنطيون أنفسهم يحترمون قبره ويستسقون به فلم يكن قبره مجهولا عندهم ، ولقد أصبح جامع أبى أيوب الأنصارى أقدس جامع فى الاستانة وأصبحت الدولة العثمانية تقيم فيه حفلة السيف وهى حفلة تقام كلما ارتقى سلطان العرش فيذهب السلطان الجديد إلى هذا الجامع ، ويقلد سيف عمر بن الخطاب فى حفلة عظيمة تشبه حفلة التتويج فى الغرب الأوربى ، وعند ما يتقلد السلطان السيف يصلى ركعتين فى ضريح أبى أيوب الأنصارى .

وأما من ناحية تذوق الأدب والفن ، فلقد كان الفاتح مغرماً بالشعر يحفظه ويقوله ويستمع إليه ويغشى نواديه ، ويكرم أهله أيًا كان موطنهم وجنسيتهم فكان يرسل بالهدايا والمنح إلى شعراء الهند وخاصة إلى الشاعر خوجايجهان ، وقامت فى عهده مدارس للشعر الغنائى فى بروسة وقسطمونى ، وكان وزراؤه يحاكون سيدهم فى هذه الناحية ويعضدون الحركة العلمية والأدبية .

وكان أربعة منهم ينظمون الشعر ، ومنهم أحمد باشا الذى وضع أسلوب الشعر الغزلى فى اللغة التركية ، ومنهم خضر باى زاده سنان باشا

صاحب تضرع نامه وجزرى قاسم الذى لقب فى مجلس الأدب بصافى وقرمانى محمد باشا ولقب بنشانى وأما السلطان نفسه فلقب بعونى .

وفى عهده نظم الشاعر حمدى قصة ليلى والمجنون باللغة التركية تقليداً للملاجانى ، كما نظم قصة يوسف وزليخا ، وأما الشهدى الشاعر فلقد حاول أن يكتب التاريخ العثمانى نظماً على طريقة الملاحم تقليداً للفردوى فى شاهنامته ، لكنه توفى بعد أن نظم أربعة آلاف بيت ، ومنهم جلشنى الذى كتب عشرين ألف بيت على طراز مثنوى . ومن الشعراء آلهى الذى ألف زاد المشتاقين ونتائج الأرواح . ومن السيدات الشاعرات مهرى وهى من بلدة أماسيا ، وزينب وهى من قسطمونى ، ونالت هاتان الشاعرتان عطف السلطان ، وهنا يجب ألا ننسى أن الأمير جم ، فلقد كان شاعراً عظيم الشان يحسن تذوق الفن .

وأما تقدير السلطان لنواحى الفن فيظهر فى ولعه بالموسيقى ، ويبدو واضحاً فى استدعائه لبلينى إلى استامبول حيث أكرمه إكراماً عظيماً وكان يقدره ويعجب به ويتابع عمله ويتبسط معه . ولقد قام بلينى برسم صور للسلطان الفاتح منها صورة كبيرة لا تزال موجودة ، ورسم صورة أخرى منها صورة كبيرة يبين فيها استقبال سفير فى الاستانة ، وعمل بلينى للسلطان مداليات على بعضها صورة الفاتح كتب حولها

باللاتينية ما ترجمته « السلطان محمد الثانى الامبراطور العظيم » وعلى ظهرها ثلاثة تيجان تمثل الأمبراطوريات التى يحكمها السلطان . ولقد أهداه الفاتح عند انتهائه من مهمته قلادة ذهبية وعطية سنوية ومنحه رتبة البكوية .

لقد كان عصر الفاتح عصراً زاخراً بالفتوحات ، عصر تنظيم وبناء ، عصراً ناضراً برجال العلم والدين والأدب والشعر .

ويقدر المسلمون فى كافة أقطار الأرض أعمال الفاتح ويرون فيه بطلا من أبطال الاسلام وزعيماً من زعمائه . وأما الأتراك فلقد تعلقوا بسلطانهم العظيم ، فهم يفخرون به ويمجدون أعماله العظيمة ويجلون ذكراه

هركوشه سنده دهرك نام بقا مدارك
شامسته در دينلسه عالم سنك مزارك
بيت خدايه قوتمش جاهك مطاع إسلام
طورمش باشكده بكار برقوم تربه دارك
ميدان حربى فيلدك سن تختكاه شوكت
توحيد إيدى مرامك إسلام إيله انامى
بر مجمع سياست بولدك عقول حسبان
دوران إيدى رقيبك الله إيدى نكارك

(إن إسمك الخالد لباق فى كل ركن من أركان العالم
وجدير أن يقال أن العالم بأسره قبرك
و إن ضريحك المشيد فى بيت الله مطاع للاسلام
ولقد وقف القوم كلهم (الأتراك) يحرسون ضريحك
جعلت ميدان الحرب مقراً لعرشك العظيم
كان غرضك توحيد الأنام بالاسلام
واجتمع لهذا الغرض علمك ومقدرتك
لبثت فى الدهر لحظة وكل لحظة أصبحت عهداً
والدهر كان رقيبك والله كان حبيبك (١)

(١) الشاعر التركى المشهور عبد الحق حامد . على قبر الفاتح .

أجزاء الكتاب

صفحة

تصدير . . . . . .

مقدمة ٣

شخصية الفاتح ١٢

تداعى الدولة البيزنطية ١٩

مدينة قسطنطين ٢٩

قصة فتح القسطنطينية ٣٨

الممهدات للحصار ٤٠

حصار القسطنطينية ٦٧

فتح القسطنطينية ٩٢

عوامل النصر ١١٣

موقف أوربا إزاء سقوط القسطنطينية ١٢٨

فتوح الفاتح الأخرى ١٣٤

فتح بلاد الأغريق ١٣٤

إخضاع الصرب ١٣٧

العلاقات العثمانية المجرية ١٤٠

فتح البوسنة ١٥٠

فتح البانيا ١٥٢

صفحة

فتوحات السلطان الفاتح فى آسيا ١٥٥
علاقة السلطان الفاتح بجنوه والبندقية وإيطاليا . . . ١٥٧
عصر الفاتح وتنظيماته ١٦٣
الدولة العثمانية ١٦٤
الحكومة والجيش ١٦٧
محمد الفاتح والكنيسة الأغريقية ١٧٣
القسطنطينية فى عهد الفاتح ١٧٦
الأدب والعلم فى عهد الفاتح ١٨١

تصويب

الصفحة	السطر	الكلمة	تصويبها
٢١	٩	كثيرا	فى كثير
٢٦	١٥	تداعت	تداعت فيه
٣٠	١٠	وبكنائسها	وعظيمة بكنائسها
٣٤	٤	بخارها	بخورها
٥٣	١٤	يصيرون مسيطرون	يسيطرون
٦٥	١١	أدرنه عاصمة	أدرنة عاصمته
٧٥	٩	يمانيه	يمانه
٩٠	٧	تنكروا	تذكروا
١٣٠	٤	فتحوت	فتحولت
١٣٢	١١	نضى	فضى
١٣٨	٦	السنوية	سنوية
١٣٨	٦	تمتع	تتمتع
١٤٠	١٢	لوى	لويس
١٤٥	١٦	النشاء	الأشداء
١٤٦	١٢	المدن	المدينة
١٤٧	٢	مسيحية	مسيحيته
١٤٧	٨	الهندى	النهرى
١٤٧	١٤	صفرفهم	صفوفهم
١٤٧	١٦	وبعد	وبعد أن
١٤٨	٨	أقر	أخر
١٤٨	١٣	العرب	الصرب
١٤٩	٦	الديب المجرى يقين	الديت المجرى تعين
١٤٩	١١	بين	مرة
١٥٠	٩	العرب	الصرب
١٥٠	٩	مت	قامت
١٥٠	١٤	ملك البوسنه	ملك البوسنة البابا

الصفحة	السطر	الكلمة	تصويبها
١٥٠	١٤	يعاملون	وأخبره بأن الأتراك يعاملون
١٥٠	١٧	الزحف	الزحف بعد ذلك
١٥١	١٦	جز	جازى
١٥٢	٩	نقلاؤها	نبلاؤها
١٥٢	١٤	العربى	الصربى
١٥٢	١٥	العرب	الصرب
١٥٣	٦	بندقته	بندقية
١٥٣	١٤	جورج كابستردنا	جورج كاستريوتس
١٥٣	١٥	وفاته	وفادية
١٥٤	١٢	خصومه	خصومته
١٥٤	١٦	تفرق	تفوق
١٥٨	١٨	اصطدمته	اصطدم
١٦١	٦	تارنتوا	تارنتو
١٧١	٦	أحمد باشا كيديق	أحمد باشا كيديق